eJOURNAL USA

التصدي للعقلية الإرهابية

أجندة السياسة الخارجية

مكتب برامج الإعلام الخارجي وزارة الخارجية الأميركية

المحرر التنفيذي جورج كلاك

مدير التحرير التنفيذي ريتشرد هاكبي
مديرة التحرير ريبيكا فورد ميتشل
مدير الإنتاج كريستيان لارسون
مساعدة مدير الإنتاج كلويه دي. إيلليس
التصميم العربي سامي الادريسي

محرر النسخة كاتليت هاغ
محرر الصور ماجي ج سليكر
تصميم الغلاف تاديوس ميكنسكي
أخصائيو المراجع صاموئيل مونكريف أندرسون
أنيتا غرين
فيفيان آر. ستال

ا لمحرر المساهم شاندلي ماكدونلد
ديفيد ماكيبي
ملدريد نيلي

مجلس إدارة التحرير جيريمي ف كورتن
جانت غارفي
جوناتن مارغوليس
شارلز ن سيلف

صورة الغلاف : امرأة تنتحب وهي تنظر إلى صور أطفال قتلوا قبل سنة خلال حصار مدرسة بيسلان في روسيا.
تصوير دميتري لافيتسكي AP/WWP

يوفر مكتب برامج الإعلام الخارجي بوزارة الخارجية الأميركية منتجات وخدمات تشرح سياسات الولايات المتحدة والمجتمع الأميركي والقيم الاميركية إلى القراء الأجانب. ينشر المكتب خمس مجلات إلكترونية تبحث في المسائل الرئيسية التي تواجه الولايات المتحدة والمجتمع الدولي. وتنشر هذه المجلات بيانات السياسة الاميركية مع التحليلات والتعليقات والمعلومات الخلفية في مجالات مواضيعها وهي: مواقف إقتصادية، وقضايا عالمية، وقضايا الديمقراطية، وأجندة السياسة الخارجية الأميركية، والمجتمع الأميركي وقيمه.

تنشر جميع الإصدارات باللغات الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية، وتنشر مواضيع مختارة منها باللغتين العربية والروسية. تُنشر الإصدارات باللغة الإنكليزية كل شهر تقريباً، وعادةً يتبعها نشر النصوص المترجمة بعد مدة تتراوح بين أسبوعين وأربعة أسابيع.

إن الآراء الواردة في المجلات لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات حكومة الولايات المتحدة ولا تتحمل وزارة الخارجية الأميركية أية مسؤولية تجاه محتوى المجلات أو فيما يخص الوصول المستمر إلى مواقع الانترنت الموصولة بهذه المجلات. تقع هذه المسؤولية بصورة حصرية على الناشرين في هذه المواقع. يمكن استنساخ وترجمة المواد الواردة في هذه المجلات في خارج الولايات المتحدة الأميركية ما لم تكن المواد تحمل قيوداً صريحة على مثل هذا الاستعمال حماية لحقوق المؤلف. يجب على المستعملين المحتملين للصور الفوتوغرافية المنسوبة إلى مصورين محددين الحصول على إذن باستعمالها من أصحاب الصور.

توجد الإصدارات الجارية والسابقة لهذه المجلات وجداول بالتواريخ اللاحقة لصدورها على الصفحة الدولية الخاصة بمكتب برامج الإعلام الخارجي على شبكة الانترنت في الموقع .http://usinfo.state.gov/journals/journals.htm. وتتوفر هذه المعلومات وفق برامج كمبيوتر متعددة لتسهيل تصفحها مباشرة أو نقل محتوياتها أو استنساخها أو طباعتها.

يمكن مراسلة المحررين على العنوان التالي:

Editor, eJournal USA: Foreign Policy Agenda
IIP/PUBS
U.S. Department of State
.4th Street S.W 301
Washington, D.C. 20547
United States of America
E-mail: eJournalUSA@state.gov

حول هذا العدد

يسجل غلاف هذا العدد من المجلة الإلكترونية إي جورنال يو إس أيه ذعر امرأة روسية فيما هي تحدق في صور أطفال لقوا حتفهم في الهجوم الإرهابي الذي وقع على مدرسة في بيسلان بروسيا في العام ٢٠٠٤. وقد قتل حوالي ٣٣٠ شخصا، أكثر من نصفهم من الأطفال، عندما أخذ إرهابيون شيشان معارضون للحكومة الروسية، أكثر من ١٢٠٠ رهينة بعد الاستيلاء على مدرسة ومد الأسلاك فيها (تفخيخها) بحيث أصبحت جاهزة للانفجار.

ويسجل وجه المرأة ردا عالميا على مثل هذا العنف الجماعي المروّع – الكرب والصدمة والعجز عن الفهم. وكما كتب جون هورغان الأستاذ في مركز دراسة الإرهاب والعنف السياسي بجامعة سانت أندروز في هذا العدد، فإن رد الفعل المعتاد أكثر من غيره على الفظائع الإرهابية هو الاشمئزاز الممزوج بالحيرة: "كيف يمكن لأي كان أن يفعل هذا؟" وبطبيعة الحال هناك سؤال آخر ينبغي طرحه: ما الذي يمكن عمله لإحباط الشبكات التي تجند الأشخاص الذين يصبحون إرهابيين ويرتكبون مثل هذه الأعمال؟

ولتقديم بعض الأجوبة عن هذه الأسئلة وإلقاء نظرة شاملة على مشكلة الإرهاب العالمية المعقدة، دعا محررو المجلة الإلكترونية إي جورنال يو إس آيه الكثير من أبرز علماء العالم في هذا المجال لبحث دوافع الأشخاص الذين يرتكبون الهجمات الإرهابية والأساليب التي تستخدمها المنظمات الإرهابية كتنظيم القاعدة لتجنيدهم وحفزهم على القيام بالعمليات.

وتصف السينمائية شرمين عبيد – شينوي الحائزة على عدة جوائز، في مقابلتنا الافتتاحية، تأثير الإرهاب على اللاجئين الأطفال الأفغان. وتضع مقالات أخرى في العدد ظاهرة الإرهاب في سياق تاريخي، وتتفحص السبل التي يتمكن الإرهابيون من خلالها أن يبرروا سيكولوجياً قتل الأبرياء، وتوضح كيف يستخدمون وسائل الإعلام والأساليب المسرحية للتأثير على المواطنين ونشر رسالتهم. وتحلل دراسات عدة حالات تجنيد الانتحاريين في العراق وتقدم نبذاً تحليلية لشخصيات النساء اللواتي يصبحن إرهابيات. ونختتم العدد بمقال للخبير الأسترالي في مقاومة الإرهاب ديفيد كيلكلين الذي يعرّف الإرهاب على أنه نوع جديد من التهديد، يتطلب نماذج جديدة تُعتمد لوضع إستراتيجيات لمحاربته.

ولا يمكن للمجتمعات المدنية أن تأمل في مقاومة التكتيك الإرهابي بصورة فعالة إلا من خلال فهم العقلية الإرهابية.

- **المحررون**

صورة:

الغلاف: جميع الصور من الأسوشييتدبرس/ وايد وورلد فوتوز.

إي جورنال يو اس أيه: أجندة السياسة الخارجية
مجلة إلكترونية تصدر عن وزارة الخارجية الأميركية
أيار/مايو، ٢٠٠٧

التصدي للعقلية الإرهابية

يلقي هذا العدد من المجلة الإلكترونية إي جورنال يو إس أيه "التصدي للعقلية الإرهابية" نظرة على مشكلة الإرهاب العالمية المعقدة. ويتفحص عدد من أبرز البحاثة في هذا المجال في العالم، بمن فيهم وولتر لاكير وبروس هوفمان وجيرولد بوست وديفيد كيلكلين ومحمد حافظ وميا بلوم، دوافع الأشخاص الذين يرتكبون الأعمال الإرهابية والأساليب التي تستخدمها المنظمات الإرهابية كتنظيم القاعدة لتجنيد وتحفيز الإرهابيين.

المحتويات

حول هذا العدد
المحررون

الإرهاب والأطفال
مقابلة مع شرمين عبيد – شينوي، مخرجة الأفلام الوثائقية الباكستانية الحائزة على عدة جوائز سينمائية
تسجل عبيد – شينوي تاريخ الخسائر الكثيرة التي يعاني منها الأطفال عندما يمزق الإرهاب مجتمعاتهم، وتحولهم تالياً إلى حياة تعرضهم لخطر تجنيدهم في صفوف التطرف.

شكل من أشكال الحرب النفسية
بروس هوفمان، الأستاذ في كلية إدموند إي. والش للعلاقات الخارجية بجامعة جورجتاون ومن كبار الزملاء في مركز مقاومة الإرهاب في الأكاديمية العسكرية الأميركية في ويست بوينت.
يقصد للإرهاب أن تكون له آثار نفسية تتجاوز ضحاياه المباشرين، بحيث يرعب أو يؤثر بشكل آخر على سلوك جمهور مستهدف أكبر بكثير.

الهوية الجماعية: الكراهية منذ نعومة الأظافر
جيرولد بوست، مدير برنامج علم النفس السياسي، جامعة جورج واشنطن
إن أقوى عدسة مكبرة يمكن النظر من خلالها إلى السلوك الإرهابي هي علم النفس المختص بالجماعات والمنظمات والمجتمع، مع تأكيد خاص على الهوية الجماعية.

النساء كضحايا وكموقعات ضحايا
ميا بلوم، أستاذة مساعدة في كلية الشؤون العامة والدولية بجامعة جورجيا
رغم أن النساء انخرطن في الحركات الإرهابية منذ زمن طويل، إلا أنهن انتقلن أخيرا من أدوار مساندة في معظمها إلى أدوار أكثر نشاطا وأدوار تنفيذ ميداني، بما في ذلك أدوار المفجرات الانتحاريات.

الإرهاب: تاريخ موجز
وولتر لاكير، البحاثة البارز غير المقيم والمستشار والخبير المنتسب، مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية

يقدم أحد أبرز الخبراء في مجال الإرهاب سياقا تاريخيا لظاهرة الإرهاب الحديث.

من وضع صورة مركبة للشخصية الإرهابية إلى الدروب

جون هورغان، زميل الأبحاث الرئيسي، مركز دراسة الإرهاب والعنف السياسي، والمحاضر في العلاقات الدولية بجامعة سانت أندروز بأسكتلندا.

ما هو سبب تجنيد عدد ضئيل فقط من الناس فعلاً في الإرهاب، رغم كون هذا العدد الكبير جداً من الناس يعيشون في الظروف التي يفترض أنها تولد الإرهاب؟

مسرح وسائل الإعلام

غابريل وايمان، أستاذ الاتصالات بجامعة حيفا والأستاذ الزائر في كلية الدراسات الدولية بالجامعة الأميركية

يمكن فهم الإرهاب الحديث باستخدام نفس مصطلحات متطلبات الإنتاج لأي نشاط مسرحي: اهتمام دقيق يوجّه لإعداد النص، واختيار الممثلين والمشاهد والمواد الداعمة كالأثاث والإدارة المسرحية المتواصلة لكل لحظة.

دراسة حالة: ميثولوجيا الاستشهاد في العراق

محمد حافظ/ أستاذ زائر، قسم العلوم السياسية بجامعة ميزوري

بنشر لقطات أشرطة الفيديو وسير المفجرين الانتحاريين على الإنترنت، يستغل الجهاديون في العراق مواضيع الإذلال والتواطؤ والخلاص لتحويل أعدائهم إلى شبه شياطين وتحفيز كوادرهم على تقديم تضحيات "بطولية". والمقصود من هذه العناصر المثيرة للعواطف أن تحشد الدعم، ليس فقط من دائرة ضيقة من الناشطين، وإنما أيضا من الجمهور الإسلامي الأوسع.

نماذج جديدة لنزاعات القرن الحادي والعشرين

ديفيد كيلكلين، كبير المستشارين لمكافحة التمرد، القوة المتعددة الجنسيات – العراق، وكبير مخططي الاستراتيجية السابق بمكتب منسق مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأميركية

إذا كانت المواجهة مع الإرهاب تستند إلى توجهات بدأت منذ فترة طويلة، فإن ذلك يعني منطقياً أنها قد تكون صراعا طويلا أو يمتد على امتداد جيل كامل أو عدة أجيال. لذا فإننا بحاجة إلى إستراتيجية كلية لمحاربة الإرهاب يمكن للشعب الأميركي والحكومات الأميركية المتعاقبة والحلفاء الرئيسيين والشركاء حول العالم، دعمها والمحافظة على استدامتها.

تقويم إستراتيجي للتقدم المحرز ضد التهديد الإرهابي

مكتب منسق مقاومة الإرهاب، وزارة الخارجية الأميركية

أسفرت الجهود الدولية التعاونية في صراع المجتمع الدولي ضد الإرهابيين الذين يعملون عبر الدول عن مجالات تحسن أمنية حقيقية. إلا أنه ما زالت هناك تحديات رئيسية، رغم هذا التقدم الذي لا يمكن إنكاره.

صورة:

الغلاف: تصوير دميتري لافيتسكي / *AP Images* ©

الإرهاب والأطفال

مقابلة مع شرمين عبيد – شينوي

فازت شرمين عبيد – شينوي، وهي صحفية ومنتجة سينمائية بالعديد من الجوائز العالمية عن أفلامها الوثائقية، وهي أول شخصية غير أميركية تمنح جائزة ليفنغستون المرموقة، وهي جائزة صحفية أميركية للصحفيين المحترفين دون سن الخامسة والثلاثين. وشرمين عبيد-شينوي تحمل شهادتي ماجستير إحداهما في دراسات السياسة الدولية والثانية في الاتصالات من جامعة ستانفورد بولاية كاليفورنيا.

س: يركز فيلمك *أطفال الإرهاب* على اللاجئين الأفغان الصغار في بلادك، باكستان. فما سبب اختيارك لهم كموضوع لفيلم وثائقي؟

ج: أمضيت عشرة أسابيع مع هؤلاء الأطفال في مخيم للاجئين في كراتشي وأدركت في وقت مبكر جداً أن تجاربهم تختلف تماما عن تجارب معظم الأطفال في باكستان. وكان واضحاً أن هؤلاء الأطفال قد تأثروا إلى درجة كبيرة بالعنف الذي نشأوا فيه، والذي سيؤثر في تحديد نوعيتهم كأشخاص راشدين. وشعرت أن قصتهم كانت بحاجة إلى أن تروى.

س: ما الذي يمكن أن تقوليه لنا عن الخسائر التراكمية التي يمر بها الأحداث في المجتمعات التي طغى فيها العنف الإرهابي على الأسرة والبنية المدنية؟

ج: يخلق الإرهاب متعمدا إحساسا بعدم الأمان وبالخوف. ويدمر عمدا نسيج المجتمع الاجتماعي بتجاهل القوانين العامة للإنسانية – وبعدئذ ينزح الكثير من المثقفين أو الذين يملكون الإمكانيات المالية، ويحاول الذين يبقون أن يعيشوا وسط العنف ولولب التدهور الاقتصادي. ويتم تدمير الأسر وسلب الأطفال براءتهم. والخسائر التي يتعرضون لها مادية واجتماعية وعاطفية.

وكان الصبية الصغار الذين عرفتهم في المخيم، لكونهم نشأوا وسط العنف، أكثر إلماما برشاشات الكلاشنيكوف ورشاشات العربات المدرعة من إلمامهم بأحرف الأبجدية. وتحدثوا عن الخوف الذي كانوا يشعرون به- في الليل عندما كانت أصوات القنابل المتفجرة والمعارك تحول دون نومهم، و(خوفهم) من التعرض للإصابة عندما يخرجون من المنزل خلال النهار، ومن قيام إحدى المليشيات بتجنيدهم قسراً أو اعتراض سبيلهم.

من الآثار المؤسفة المتأتية عن الإرهاب اضطرار الأحداث إلى القيام بمسؤوليات الراشدين، كأن يصبحوا المعيلين الذين يكسبون عيش أسرهم. هذان الصبيان الأفغانيان حصلا على عمل كعمال أطفال ينسجون السجاد في باكستان. 2007
SharmeenObaidfilms.com

وعندما ينشأ جيل في ظل هذا النوع من العنف والخوف، يُحرم من التعليم ومن معرفة ثقافته الحقيقية. ويضطر الأطفال الصغار إلى التكفل بأنفسهم في الشوارع، وكثيرا ما يرسلون للبحث عن الطعام أو العمل في وظائف خطرة لكسب المال. ويعاملون ككبار وليس كأطفال. وهذا هو أحد نجاحات مرتكبي العنف العشوائي: إنهم يخلقون بيئة لا يستطيع الأطفال التصرف فيها كأطفال، بل يرغمون على تحمل مسؤوليات الكبار.

ومعظم الصبيان الصغار الذين تحدثت معهم لم يمضوا وقتا طويلا مع آبائهم أو أشقائهم الأكبر سنا لأن الذكور الراشدين إما لقوا حتفهم أو يعيشون بعيدين عن منازلهم منذ مدة طويلة. وهكذا فإن هؤلاء الأولاد كانوا أساساً، "رجال" البيت، ووضعت على كاهلهم مسؤولية إعالة وحماية نساء الأسرة. وقد تعين عليهم أن يتعلموا كيف يستخدمون السلاح في سن السادسة أو السابعة، وما أن بلغوا

الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة حتى كانوا جاهزين للذهاب والقتال بأنفسهم.

وهذه هي الطريقة التي يضمن بها الإرهابيون وجود إمدادات ثابتة من المجندين الجدد – إيجاد مجتمع لا يقوم بوظائفه، ثم عرض بديل لذلك – وهو بديل يسيطرون هم عليه بطبيعة الحال عن طريق العنف والترهيب والتأثير على الناس وتحريكهم حسب هواهم. وهم يستغلون الكوارث، الطبيعية منها وتلك التي يسببونها، بتقديم المساعدة للمحتاجين، ولكن بشروط معقدة.

س: كيف يتم التجنيد؟

ج: الأطفال هم المجندون الجدد المثاليون بالنسبة للإرهابيين لأنهم لا يملكون القدرة على إثارة التساؤلات حول دوافع الراشدين، ويمكن التأثير عليهم بسهولة من خلال استثارة عواطفهم، كما يمكن إقناعهم بسهولة بالقيام بأي عمل يطلب منهم.

وقبل بدء "الجهاد" بعقود في العالم الإسلامي، كان يتم تجنيد الجنود الأطفال في إفريقيا وأميركا الجنوبية. وأثبت الأطفال في تلك الحروب أنهم لا يعرفون الخوف. وتعلمنا دراسة بعد الأخرى أن الصغار مندفعون ويميلون إلى المخاطرة. وأنهم ما زالوا يفتقرون (في ذلك العمر) إلى حد كبير إلى النضج لكي يحكموا بشكل سليم على قدرتهم على التعامل مع الأوضاع أو يروا الاحتمالات المأساوية.

هؤلاء الجنود الأحداث من حركة تمرد كونغولية من بين مئات الآلاف من الأحداث الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة بعد ممن يجندون للقتال في مختلف أنحاء العالم.
كاريل برينسلو/ AP Images©

ويعرف كل والد أن الأطفال، كونهم غافلين عن كيفية تأثير تصرفاتهم عليهم أو على غيرهم، يتخذون قرارات سيئة في كثير من الأحيان. وهذا هو سبب كون الأطفال معرضين لأن يتم استغلالهم مرارا وتكراراً من قبل الآخرين، وقد حدث ذلك. وهذا بالضبط أيضاً هو السبب الذي يجعل من الضروري للأطفال أن يحصلوا التعليم، ويكونوا قادرين على التمعن في الأمور، وأخذ العواقب بعين الاعتبار، والتوصل إلى القدرة على فهم الأمور.

ويتم التحكم بالكثير من الأطفال في العالم الإسلامي والتأثير عليهم من خلال مجرد إرغامهم على العيش في الشوارع. فيتعين عليهم البحث عن الغذاء والمال بأي وسيلة كانت. وإذا كانوا فتيانا قد يعرض عليهم مكان في مدرسة دينية حيث يزودون بالطعام والتعليم، ولكن ما يتعلمونه قد يكون عقيدة أصولية ليس فيها تسامح تجاه الآخرين، وقد لا تكون متسامحة حتى تجاه الأشخاص الذين يمارسون شعائر نفس الديانة ولكن بشكل مختلف، وعقيدة تعتبر الغرب وأعرافه وتقاليده عدواً يجب قهره والانتصار عليه.

ويتم تجنيد هؤلاء الأحداث إما عن طريق التملق والتزلف إليهم أو بإكراههم على الانضمام إلى الجهاد، ويتم تجنيدهم بالضبط لأن حداثتهم ذاتها قابلة للاستغلال: فبما أنه لا يتم الإدراك فوراً أنهم يشكلون تهديداً، يمكنهم الدخول والخروج من المناطق التي يخضع الداخل إليها لإجراءات أمنية مشددة أثناء لعبهم كرة القدم في الشوارع. إنهم الغطاء المثالي للإرهابيين – إنهم من السذاجة بحيث أنه لا تتكون لديهم فكرة واضحة عما يتوقع منهم إلا بعد فوات الأوان.

وخلافا لما قد يعتقده الغرب، أصبح الإرهابيون أكثر نجاحاً في تجنيد الشبان المسلمين، بل والأكثر إثارة للقلق، الشابات المسلمات للقضية. وأحد الأسباب الرئيسية لهذا الانتصار هو نجاحهم في إبقاء جزء كبير من العالم الإسلامي مفتقراً إلى التعليم ومنغلقاً لا يتقبل الأفكار الجديدة.

س: ماذا عن أهالي هؤلاء الأطفال؟

ج: رد فعل الوالدين قد يكون مفاجئا. فالفقر والأمية يلعبان دورا كبيرا في تحديد معتقداتهم. ففي جنوبي أفغانستان، كانت أسر كثيرة من تلك التي تحدثت معها فخورة بكون أبنائها الصغار – بعضهم لم يبلغ ١٥ عاما – مجدوا اسم الإسلام "بمهاجمة العدو". وهؤلاء الفتيان الصغار كانوا ينتمون إلى أسر كبيرة

العدد، وكان لبعضهم عشرة أخوة. وكان آباؤهم فقراء لم يتمكنوا من رعايتهم، ولذا فقد أُرسلوا إلى مدارس إسلامية بعيدة في باكستان. وقد أصبح آباء وأمهات هؤلاء الفتيان بالكاد يعرفونهم.

وكما أشرت من قبل، فإن معظم الذكور البالغين لم يعودوا موجودين مع العائلة، كما أن النساء وبناتهن، اللاتي سبق وحرمن من التعليم، غالباً ما يمنعن من العمل خارج المنزل. وعند إعطاء الخيار للصبي بين المدرسة والغذاء والملبس أو البحث عن لقمة العيش التي تمكنه من البقاء على قيد الحياة في القمامة ... فقد لا يكون هناك خيار أحيانا.

وهذا هو أحد أسباب نجاح الإرهابيين إلى هذا الحد الكبير في إقناع الفتيان الصغار بالانضمام إليهم وتبني وجهة نظرهم، إنه كون الفتيان يفتقرون إلى نظام يدعمهم وإلى والدين يستشيرونهم؛ وكثيرا ما يكونون عرضة لضغط الأقران للانضمام والانتماء لشيء أكثر نظاما من الشوارع، لتحقيق فرصة للحصول على بعض المجد أو استعادة شرفهم.

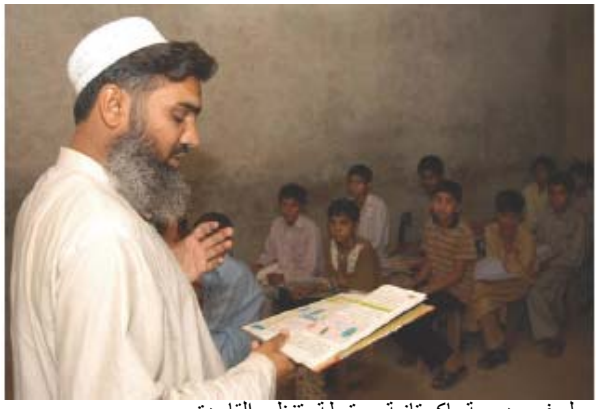

معلم في مدرسة باكستانية مرتبطة بتنظيم القاعدة.
خالد تنوير/ AP Images©

وفي الوقت نفسه، يجني الوالدون الفقراء فوائد اقتصادية من التضحية بأبنائهم وبناتهم للإرهاب الانتحاري ويتلقون آيات مختارة من القرآن الكريم– من دون سياق ملائم – تظهر أن أولادهم ماتوا وهم يتبعون تعاليم النبي. وتحصل النساء اللاتي يعشن وحدهن خاصة، في بعض الأحيان، على مكانة اجتماعية مميزة في المجتمع المحلي، إضافة إلى الدعم المالي، لكونهن أمهات شهداء.

إن الموقف تجاه المرأة والتعليم والفقر والعنف المستمر والخوف ... كلها تسهم في إيجاد وضع معقد جدا.

س: حدثينا قليلا عن بعض الأطفال في فيلمك – خاصة الصبي الجاد الذي رافقك إلى بركة السباحة العامة، والولد اللطيف الذي كان يعمل في مصنع للسجاد، والفتاة الصغيرة الذكية والحيوية التي لم تكن تريد أن تتزوج.

ج: كان خال محمد في الحادية عشرة، وفي المخيم بدون أسرة، وكان قد أخذ إلى مدرسة أصولية. ورغم أنه لا يستطيع القراءة، حفظ جميع آيات القرآن الكريم، وهو إنجاز هائل. إلا أنه كان صبياً صارما جدا وعندما ذهبنا إلى بركة السباحة العامة، حيث كانت النساء مغطيات تماما – باستثناء وجوههن وأيديهن وأقدامهن – أصر على أنهن لم يكنّ "سيئات" فحسب، بل على أنه هو سيذهب إلى جهنم لمجرد أنه كان بين هؤلاء الناس الذين يتصرفون "بشكل لا أخلاقي" أثناء تمتعهم بالعيد.

وكان نور محمد في العاشرة ومسؤولا وحده عن دعم أسرته ماليا عن طريق ممارسة عمل خطر وصعب هو صنع السجاد. وقد تحدث هذا الطفل الذكي أيضا بتوق كئيب عن حياته السابقة قبل أن يلقى والده وعمه حتفهما وكيف أنه كان سيكون في المدرسة لو أنهما ما زالا على قيد الحياة. وأثناء تصوير فيلمنا خسر وظيفته لأنه وصل متأخرا إلى العمل – كان هناك فتيان كثيرون متلهفين لأن يحلوا محله – بسبب اضطراره لمساعدة شقيقه الأكبر المدمن على المخدرات الذي كان موجودا في المستشفى.

أما ليلى، التي كانت في العاشرة أيضا، فكانت تكرر أنها لا تريد الزواج وإنما تريد تحصيل العلم، في حين كان والدها يزجرها بلطف، موضحا أنها ستخطب قريبا لأنها ستحتاج، مع تقدمها في العمر، إلى رجل لحمايتها. وفي الحقيقة أن اللعبة الرئيسية بالنسبة للبنات في المخيم كانت لعبة "الزفاف".

والفتيات الصغيرات معرضات بشكل خاص للتجنيد في العقيدة المتشددة بسب عدم توفر سبل أخرى تُذكر أمامهن. وفي دول مثل باكستان، بدأت المدارس الدينية الأصولية تبذل عناية خاصة لضم النساء الصغيرات، لإدراكها أنها تستطيع من خلال تلقينهن مبادئها، السيطرة على أسرة كاملة. فالمرأة تذهب من المسجد إلى منزلها حيث تربي وتعلم أطفالها وتتحدث مع جيرانها، وبذلك تزدهر العقيدة وتنمو. وهذه هي الخطوة الأولى نحو إضفاء الروح العسكرية على النساء.

وقد بدأنا نشاهد بالفعل الخطوة التالية. فقد طالبت مجموعة من النساء اللواتي حملن العصي في إسلام أباد في الآونة الأخيرة، بإغلاق محلات الفيديو وحظر محلات الأشرطة الموسيقية. وهاجمن منزلا اعتبرن أنه تتم ممارسات أمور غير أخلاقية فيه واختطفن النساء اللاتي يعشن في المنزل. وكان بعض هؤلاء المتشددات الناشطات اللاتي أصدرن الأحكام على الآخرين بالكاد في سن الخامسة عشرة. وهذه هي فعالية مؤيدات العقيدة الأصولية. إنهن يقمن اليوم بمداهمة منزل تسكن فيه مسلمات "فاسقات،" وقد يقررن غداً ربط أحزمة القنابل

حول أجسادهن والتحول إلى مفجرات انتحاريات ضد "الكفار".

والواقع هو أن الكثير من النساء المسلمات المولودات في الغرب اللاتي حصلن مستوى جيداً من التعليم عرضة للتجنيد. وقد كتبت مقالا ألقى نظرة متفحصة على المدارسة الدينية الإسلامية في ميسيسوغا بكندا. ويقال للنساء المسلمات – الكنديات الصغيرات هناك بأن ينأين بأنفسهن عن العالم الغربي الذي يعشن فيه. ويقال لهؤلاء النساء، اللواتي تعرضن لغسل الدماغ وأقنعن بتغطية وجوههن والتقيد بالفصل بين الجنسين، يقال لهن باستمرار بأن إخوانهن المسلمين يموتون في المعارك دفاعاً عن شرفهن لكي لا يتمكن الرجال الغربيون من "تدنيسهن". ومن المفارقات أنهن يرفضن نفس النظام السياسي الذي يمنحهن الخيارات التي يتمتعن حاليا بها. وهذه مشكلة كبيرة لأن الكثير من الناس لا يثيرون التساؤلات حول التعاليم التي يتم نشرها في المدارس الدينية في مجتمعات ككندا والولايات المتحدة، حيث لا يتم تشجيع التعددية الثقافية والحرية الدينية فحسب، وإنما يتم أيضاً اعتبارها الأساس الوطيد الذي تقوم عليه مبادئ المجتمع. ومن المبادئ الأساسية أن الإناث يتمتعن بالحق في التعليم وبالحق في ممارسة مبادئ دينهن. ولسوء الحظ، تتعلم هؤلاء النساء اللاتي منحن القدرات تفسيرا متشددا جدا للإسلام، وهو تفسير يتناقض بشكل مباشر مع المجتمع الذي نشأن فيه والذي من المؤكد أنهن سيصطدمن، هن وأبناؤهن، معه في المستقبل.

س: ما هو في رأيك مستقبل هؤلاء الأحداث؟

ج: تشير التقديرات إلى أن أكثر من ٥٠ بالمئة من سكان العالم المسلمين لم يبلغوا الثامنة عشرة من العمر بعد، وهي ظاهرة ديمغرافية مروعة، خاصة وأن معظم هؤلاء الأحداث يكادون لا يملكون أي سبيل للحصول على التعليم أو التوظيف. وهم محبطون بسبب الحكومات الفاسدة التي تحكمهم. ويرون ممارسة الغرب لمعايير مزدوجة، فهو يصر على الديمقراطية في العراق، ولكن ليس في دول المنطقة الأخرى. وهم يدركون أن الإسلام كان ذات يوم أساس حضارة عظيمة ، ويتساءلون عما حدث لأن جيلهم لم يشاهد سوى الفقر والحرب والدمار والفساد ومحاباة الأقارب. ولا بد من تحويل هذه المشكلة بشكل ما إلى ميزة: فبوسع هؤلاء الشبان والشابات، إذا ما تلقوا التعليم الملائم ومنحوا الفرصة، أن يكونوا بدلا من ذلك محرك التغيير والتقدم الاقتصادي.

إن الإسلام الحقيقي يشجع المسلمين على التكيف مع الأزمنة المتغيرة، ولكن الأصوليين المتشددين ظلوا على الدوام يعارضون كل جديد، من التلغراف إلى التلفزيون. وهم يعارضون التعليم الحديث لأنهم يقولون إنه يعلم مواضيع ليست منسجمة مع الإسلام. ويعلم المسلمون المتعلمون أن هذه خدعة لمنع العقول الشابة النشيطة من تحديهم.

ويتحول الأمر إلى حلقة مفرغة: من خلال حرمان المسلمين الأحداث بصورة متعمدة من تلقي التعليم الجيد، يضمن الأصوليون كون مستقبل مجنديهم المحتملين قاتماً ويجعلهم الإحباط الناتج عن ذلك عرضة للتأثر بسهولة بالعقيدة الإرهابية. وتفرض تلك العقيدة عليهم أن يرفضوا بشدة أي أفكار تتحدى المبادئ الأخلاقية الأصولية كما أنها تحول دون تعلمهم أهمية حرية الرأي والتعبير التي تفصل الأفكار المنطقية عن التحامل العاطفي، أي بالضبط ذلك الشيء الذي يمكن أن تبنى عليه المجتمعات الحيوية التي يريدها معظم الناس لأبنائهم.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

طلاب أفغان من مدرسة دينية في باكستان في تجمع جماهيري في كراتشي بباكستان في العام ٢٠٠١.
محمد رضا / ©AP Images

شِكل من أشكال الحرب النفسية

بروس هوفمان

الدكتور بروس هوفمان أستاذ بكلية إدموند إس. وولش للخدمة في السلك الخارجي بجامعة جورجتاون ومن كبار الزملاء في مركز مقاومة الإرهاب في الأكاديمية العسكرية الأميركية في ويست بوينت. يستند هذا المقال جزئيا إلى مادة نشرت سابقا في كتاب للمؤلف بعنوان "داخل الإرهاب"، الطبعة الثانية (نيويورك: مطبعة جامعة كولمبيا، ٢٠٠٦).

الإرهاب هو الخَلق المتعمد للخوف واستغلاله في تحقيق التغيير السياسي. وبالتالي فهو دون شك شكل من أشكال الحرب النفسية.

ومع أن الناس كثيرا ما يتعرضون للقتل والإصابات المأساوية في هجمات الإرهابيين، إلا أن الإرهاب بطبيعته يرمي لإحداث آثار نفسية بعيدة المدى بشكل يتجاوز الضحية/الضحايا المباشرين وما استهدفه عنفهم. فالإرهاب يرمي إلى غرس الخوف في داخل النفوس وبالتالي إلى إرهاب المجموعة التي يستهدفها الإرهابيون والتأثير على سلوكها.

وتختلف هذه المجموعة المستهدفة وفقا لاختلاف أهداف الإرهابيين ودوافعهم وأغراضهم. وقد تشمل حكومة قومية أو حزبا سياسيا أو مجموعة إثنية أو دينية منافسة أو دولة كاملة ومواطنيها أو الرأي العام العالمي. وقد يكون هدف الهجوم الإرهابي قطاعا محدداً من جمهور معين، أو أنه ربما يكون قد خُطط بحيث يستهدف قطاعات وجماهير متعددة.

والمقصود من ذيوع أنباء الهجوم الإرهابي والاهتمام الذي يتركز على مرتكبيه هو إكساب الإرهابيين القوة، وتشجيع نشوء بيئة خوف وترهيب ملائمة لاستغلال الإرهابيين لها واستفادتهم منها. ومن هذه الناحية، يقاس نجاح الإرهاب على أفضل وجه ليس بمقاييس الحرب التقليدية – عدد قتلى العدو في المعركة، أو حجم القدرات العسكرية المدمرة، أو المساحة الجغرافية التي يتم الاستيلاء عليها – وإنما بقدرته على جذب الانتباه إلى الإرهابيين وقضيتهم وبالأثر السيكولوجي والآثار الضارة التي يأمل الإرهابيون بإلحاقها في جمهورهم/جماهيرهم المستهدفة.

حارس يفتش حقيبة يد امرأة إندونيسية في مركز تسوق بجاكارتا في شهر آب/أغسطس ٢٠٠٣، في أعقاب عملية تفجير في فندق ماريوت بجاكارتا أدت إلى مقتل ١٣ شخصا وإصابة حوالى ١٤٩ آخرين بجراح. تاتان سيوفلانا/ AP Images©

ويستخدم الإرهابيون العنف – أو، وهو أمر بالأهمية نفسها، يستخدمون تهديد العنف – لأنهم يعتقدون بأن العنف الوحشي هو السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله تحقيق انتصار قضيتهم وأهدافهم السياسية بعيدة الأمد. ولذا فإنه يتم تعمد تخطيط العمليات لإحداث صدمة وتأثير كبير وترهيب – بحيث يُضمن أن تكون أفعالهم جريئة ودموية بما فيه الكفاية لجلب اهتمام وسائل الإعلام، وبالتالي الشعب والحكومة أيضا. وعليه، فإن الإرهاب ليس عمليات كيفما اتفق يتم القيام بها بدون تمييز أو دقة في الاختيار، بل هو في واقع الأمر استخدام متعمد جداً ومخطط جيدا للعنف.

ما يريده الإرهابيون

مع أن أهداف ودوافع أنواع الإرهابيين المختلفة – من يساريين ويمينيين، وإثنيين-قوميين ودينيين، وأصحاب قضية واحدة ومثاليين- قد تختلف، إلا أنهم جميعاً يرغبون في أن تثير أعمالهم أضخم ضجة إعلامية بحيث تنتشر أنباؤها إلى أبعد حد ممكن، فيحققون بالتالي، من خلال الترهيب والإخضاع، أهدافهم.

بعد صدور تحذير في شهر تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٦، من وجود تهديد إرهابي يستهدف مترو الأنفاق في مدينة نيويورك، قامت الشرطة بإغلاق جزء من قاعة الانتظار في محطة "بين"، أثناء تفحصها رزمة مثيرة للشك.
جون سموك/ AP Images©

ويتم إعداد العمل الإرهابي وتنفيذه بطريقة تقوم، في نفس الوقت، بعكس أهداف ودوافع المجموعة الإرهابية الخاصة المحددة، وتناسب مواردها وقدراتها، وتأخذ بعين الاعتبار الجمهور المستهدف. ومن المحتم أن يتأثر اختيار تكتيك وأهداف الحركات الإرهابية المختلفة، بالإضافة إلى الأسلحة التي تفضلها، بإيديولوجية المجموعة، وبالقوى المحركة لتنظيمها الداخلي، وشخصيات قيادتها، وبطائفة أخرى من العوامل الداخلية والخارجية. فعلى سبيل المثال، قام الإرهابيون اليساريون في سبعينيات القرن الماضي مثل الجيش الحمر في ألمانيا الغربية والألوية الحمراء في إيطاليا بعمليات الخطف والاغتيال الانتقائي لأشخاص معينين اعتبروهم مسؤولين عن الاستغلال الاقتصادي والقمع السياسي، بهدف لفت الانتباه وإشاعة أخبارهم لكي يحصلوا على الدعاية لأفكارهم ويشجعوا الثورة الماركسية – اللينينية. أما الإرهابيون المعاصرون المدفوعون بإلزام أو فرض ديني، فيقومون بأعمال عنف أقل تمييزاً وانتقائية ضد فئة أوسع بكثير من المستهدفين، لا تشمل أعداءهم المعلنين فحسب، بل أي شخص لا يشاركهم عقيدتهم الدينية، وحتى الأشخاص الذين ينتمون إلى الديانة نفسها ولكنهم لا يشاركون الإرهابيين نفس أفكارهم السياسية وتفسيراتهم الدينية.

ولذا، يمكن النظر إلى الإرهاب ليس فقط على أنه عمل عنيف يعدّ عمدا للفت الانتباه، ولكن أيضا على أنه لإيصال رسالة عن طريق الضجة الإعلامية التي يولّدها. وكما قال الطبيب النفسي الراحل الدكتور فريدريك هاكر الذي كان خبيراً في الإرهاب، إن الإرهابيين يسعون إلى "التخويف، وعن طريق التخويف إلى الهيمنة والسيطرة. إنهم يريدون أن يتركوا تأثيرا كبيرا. إنهم يقومون بعملياتهم للتأثير على الجمهور ويسعون إلى الحصول على مشاركة الجمهور."

ويتم تعمد تخطيط القتل والدمار الناجمين عن الإرهاب بحيث يؤديان إلى غرس الخوف في النفوس والتأثير سلبا على الحياة اليومية العادية من خلال تهديد السلامة الشخصية، وبالتالي تمزيق النسيج الاجتماعي للبلاد بتدمير حياتها الاقتصادية والثقافية والثقة المتبادلة التي يستند إليها المجتمع. ويشكل الامتناع عن زيارة مراكز التسوق، أو حضور الأحداث الرياضية، أو الذهاب إلى المسرح والسينما والحفلات الموسيقية، أو السفر إلى الخارج أو داخل بلد الشخص ردود فعل مألوفة على الخوف (تعرف بـ "شعور المرء بأنه ضحيةٌ مشاركةٌ للآخرين") يولدها عدم معرفة مكان وموعد وقوع الهجوم الإرهابي التالي.

الإرهاب ووسائل الإعلام

تلعب وسائل الإعلام الحديثة، بوصفها الوسيلة الرئيسية لنشر المعلومات المتعلقة بالإرهاب، دورا حيويا في هذه المعادلة. والواقع هو أنه يمكن المجادلة بأن تأثير الإرهابيين سيكون مجهودا ضائعا من دون التغطية الإعلامية، إذ إنه سيقتصر على ضحايا الهجوم الفعليين والمباشرين بدلا من الوصول إلى الجمهور الأوسع المستهدف. ولا يستطيع الإرهابيون تحقيق الحد الأقصى لتأثيرهم المحتمل الذي يحتاجون إليه لإحداث التغيير السياسي الجوهري إلا بنشر الخوف والسخط بين جمهور أكبر بكثير.

وقد أعلن بريان جينكنز عبارته المشهورة "الإرهاب عملية مسرحية" في دراسته الجوهرية الرائدة في العام ١٩٧٤ بعنوان "الإرهاب العالمي: شكل جديد للنزاع"، التي توضح كيف أن "خطوات الهجمات الإرهابية تصمم في كثير من الأحيان بعناية لجذب اهتمام وسائل الإعلام الإلكترونية والصحافة العالمية". وتستجيب وسائل الإعلام في نفس الكثرة من الأحيان لهذه المبادرات بحماس يكاد يكون مطلقا، مثبتة عجزها عن تجاهل ما وصفه محلل رائد آخر للإرهاب هو جي. بوير بيل بدقة بأنه "حدث ... صُمم خصيصاً لاحتياجاتها".

وقد تطورت قدرات الإرهابيين الإعلامية في السنوات الأخيرة، نتيجة للإنترنت، إلى درجة أنهم يستطيعون الآن التحكم في عملية الاتصالات الكاملة بتحديد المضمون والسياق والوسيلة الإعلامية التي تبث رسالتهم عن طريقها إلى الجمهور (أو الجماهير المتعددة) الذي يسعون إلى الوصول إليه.

وتداعيات هذا التطور هائلة لأنها تتحدى الاحتكار الذي مارسته وسائل بث المعلومات الإذاعية والتلفزيونية، التجارية والتي تملكها الحكومات، لمدة طويلة في مجال تبليغ الرسالة الإرهابية للجماهير. لذا، وكما حدث في الثورات الإعلامية السابقة – كاختراع المطبعة الدائرية في أواسط القرن التاسع عشر والتقدم في أجهزة ومعدّات التلفزيون التي جعلت نقل الأحداث أثناء وقوعها فعلياً ممكنا في ستينيات القرن الماضي – أدت الثورة الجديدة في مجال الإعلام إلى تمكين الجماعات الإرهابية بشكل جوهري وإلى منحها القدرة على صياغة وتوزيع رسالتها بطريقتها الخاصة، متجاوزة تماماً وسائل الإعلام التقليدية القائمة.

دور الإنترنت

كما لاحظت تينا براون، عميدة إعلام حقبة ما بعد الحداثة، بفطنة في العام ٢٠٠٥ "حوّل التقاء سرعة الإنترنت في القرن الحادي والعشرين وتعصب القرن الثاني عشر العالم إلى مكان سريع الالتهاب".

وتتسم الإنترنت، بالإضافة إلى سرعتها ووجودها في كل مكان وفي كل وقت، بميزات أخرى: تستطيع أن تتجاوز الرقابة الحكومية؛ ويمكن إرسال الرسائل عبرها بدون أسماء وبسرعة وبدون بذل أي جهد تقريبا؛ وهي وسيلة اتصال جماهيري زهيدة الثمن عند مقارنة منفعتها بتكاليفها.

كما أنها تمكّن الإرهابيين من القيام بما أطلقت عليه الأستاذة الجامعية دوروثي دينتج اسم إدارة الفكرة المدركة أو التحكم بالصورة المنطبعة – أي تصوير أنفسهم وأعمالهم بالضبط في الضوء والسياق الذي يريدونه، دون أن يعرقل ذلك تفحص وسائل الإعلام الرسمية لذلك التصوير أو غربلته أو تحويره.

يظهر في شريط الفيديو هذا في شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٣، رجل عصابات يتحدث اللغة العربية يعلن مسؤولية القاعدة عن تفجيرات انتحارية في المملكة العربية السعودية والمغرب وينذر بمزيد من الهجمات الآتية.
بي. كي. بنغاش/ ©AP Images

وقد أشار محللان معروفان في مؤسسة راند إلى "أنه ليس من المثير للدهشة كون الإرهابيين الذين يملكون خط اتصال بالشبكة العنكبوتية قد بدأوا بالفعل باستخدام تكنولوجيا المعلومات لإدارة الفكرة المدركة وللدعاية للتأثير على الرأي العام وتجنيد أعضاء جدد وجمع الأموال. وأضاف المحللان أن "نشر الرسالة والحصول على تغطية إعلامية إخبارية واسعة عنصران مهمان لإستراتيجية الإرهابيين، التي ترمي في نهاية المطاف إلى تقويض إرادة عدو. وبالإضافة إلى وسائل الإعلام التقليدية كالتلفزيون أو الصحافة المطبوعة، توفر الإنترنت الآن للجماعات الإرهابية طريقة بديلة للوصول إلى الجمهور، مع التمتع في كثير من الأحيان بسيطرة مباشرة أكثر بكثير على الرسالة".

ومما يثير القلق بالقدر نفسه أن الإنترنت، التي اعتبرت في وقت ما محركاً ينقل التعليم والتنوير للعالم، أصبحت وسيلة أساسية لبث الدعاية الإرهابية والكراهية والتحريض على العنف – مقدمة أسوأ وأدنأ نظريات المؤامرة بانتشار واسع منفصل كليا عن الواقع. فعلى سبيل المثال، رغم إعلانات تنظيم القاعدة المتكررة مسؤوليته عن هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ورغم حتى توزيع أشرطة فيديو "الاستشهاد" التي سجلها مختطفو الطائرات وهم يتحدثون عن الهجمات المرتقبة، فإن مواقع الإنترنت المرتبطة بالحركة الجهادية تنشر بصورة منتظمة تأكيدات بأن الولايات المتحدة أو إسرائيل هي التي نفذت الهجمات لتبرير حرب على الإرهاب كان المقصود منها دائما أن تكون "حربا على الإسلام".

والنتيجة هي أن أغرب وجهات النظر وأكثرها خيالية وتكلفاً بدأت تكتسب مظهراً خادعاً من الحقيقة لمجرد كونه يتم تكرارها وتوزيعها بدون اعتراض أو قيود على الشبكة العنكبوتية كافة.

ملاذ للقاعدة

إن تنظيم القاعدة في الواقع فريد بين المجوعات الإرهابية الأخرى من جميع هذه النواحي المتعلقة بالاتصالات. ذلك أنه يبدو أن قيادة تنظيم القاعدة أدركت بالحدس، منذ تأسيسه في أواخر ثمانينيات القرن الماضي وأثناء نشوئه في أوائل التسعينات من نفس القرن، الإمكانية الإعلامية الهائلة التي تنطوي عليها الإنترنت وسعت إلى تسخير قوتها لدعم أهداف الحركة الاستراتيجية ولتسهيل عملياتها التكتيكية.

وتتضح الأولوية التي أعطتها القاعدة لاتصالاتها الخارجية في هيكلها التنظيمي في الفترة السابقة للحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فقد كلفت واحدة من اللجان الأربع الأصلية الفاعلة للقاعدة بمهمة الإعلام والدعاية. (وكانت اللجان الأخرى مسؤولة عن العمليات العسكرية، والمالية والأعمال التجارية، والفتوى والدراسة الإسلامية).

وذكر أن خبراء الكمبيوتر المصريين الذين قاتلوا إلى جانب مؤسس القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن في أفغانستان ضد الجيش السوفييتي في ثمانينيات القرن الماضي، جندوا على وجه الخصوص لإنشاء شبكة واسعة من المواقع الإلكترونية، وقدرات الرسائل الإلكترونية، ولوحات الإعلان الإلكترونية التي ما زالت تقوم بوظائفها حتى اليوم – رغم طرد القاعدة من أفغانستان، وتدمير قاعدتها الميدانية في تلك البلاد، ومواصلة شن الحرب العالمية التي تتزعمها الولايات المتحدة ضد الإرهاب.

وقد أصبحت الإنترنت بالنسبة للقاعدة نوعاً من الملاذ الآمن الافتراضي، يوفر وسيلة فعالة وسريعة ومجهولة الهوية لمواصلة الاتصالات مع مقاتلي التنظيم وأتباعه وأنصاره ومؤيديه في جميع أنحاء العالم، فيما يواصل التنظيم حملته في الحرب النفسية. ولذا، ما زالت القاعدة، رغم كون وضعها أضعف مما كان عليه، قادرة على توليد الخوف والذعر والقلق في العالم.

ولا يمكن لأي كان بالطبع التكهن بالأشكال والأبعاد الجديدة التي سيتخذها الإرهاب خلال بقية القرن الحادي والعشرين. ولكن من الممكن القول بأنه مع استمرار الاتصالات الإرهابية في التغير والتطور، ستستمر طبيعة الإرهاب نفسه هي أيضاً في التغير والتطور. ومن هذه الناحية، فإن الحرب السيكولوجية، وهي الدعامة الأساسية للأهداف والقدرات الإرهابية، لن تستمر وحسب وإنما من المرجح أن يتم دعمها وتصعيدها من خلال تكنولوجيات الاتصالات جديدة – تماماً كما كان الحال عبر العقد الماضي.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

الهوية الجماعية: غرس الكراهية منذ نعومة الأظافر

جيرولد بوست

جيرولد بوست طبيب وأستاذ في الطب النفسي وعلم النفس السياسي والشؤون الدولية، ومدير برنامج علم النفس السياسي بجامعة جورج واشنطن بمدينة واشنطن العاصمة.

هناك افتراض واسع النطاق بأن صفوف الإرهابيين مليئة بالأفراد المصابين باضطرابات نفسية خطيرة. فمن، سوى شخص متعصب جن جنونه، سيقتل ضحايا أبرياء باسم قضية ما، وسيصبح بملء إرادته قنبلة بشرية؟

ولكن الواقع هو أن الرأي الإجماعي للجنة الخاصة بالجذور النفسية للإرهاب، والتي قمت بتنظيمها للقمة الدولية حول الديمقراطية والإرهاب والأمن التي عقدت في مدريد في شهر آذار/مارس ٢٠٠٥، هو أن البحث في علم الأمراض النفسية الفردية لفهم سبب انخراط الناس في الإرهاب عملية محكوم عليها بالفشل المحتم، وأن التفسيرات على مستوى علم النفس الفردي غير كافية.

وفي الحقيقة أننا خلصنا إلى أننا لن نكون مبالغين إن نحن جزمنا بأن الإرهابيين أشخاص "طبيعيون" نفسيا، من حيث أنهم ليسوا ذهانيين إكلينيكيا. وهم ليسوا مكتئبين وليسوا مصابين باضطراب عاطفي شديد، أو متعصبين أصابهم جنون التعصب. والواقع هو أن الجماعات والمنظمات الإرهابية تعزل من بين صفوفها الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات عاطفية، الذين يمثلون مخاطرة أمنية.

وهناك عدد وافر من الدوافع الفردية لممارسة الإرهاب. فهي بالنسبة للبعض، إعطاء شعور بالقوة لمن لا حول ولا قوة لهم؛ في حين أن الانتقام هو الدافع الرئيسي بالنسبة للبعض الآخر؛ واكتساب شعور بالأهمية، دافع آخرين غيرهم.

وبدلا من علم النفس الفردي، فإن ما يبرز كأقوى عدسة مكبّرة ينظر من خلالها لفهم السلوك الإرهابي هو علم نفس المجموعة والمنظمة وعلم النفس الاجتماعي، مع تأكيد خاص على "الهوية الجماعية".

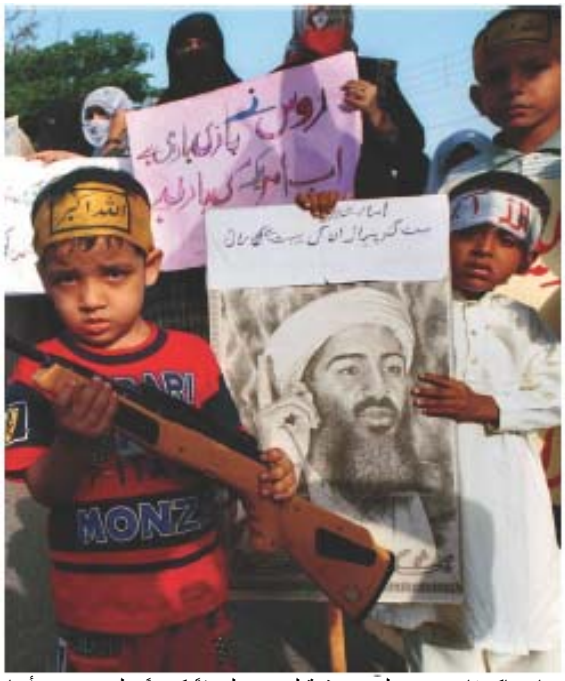

صبيان باكستانيون يحملون بندقية لعب وملصقاً كبيراً عليه صورة أسامة بن لادن في تجمع جماهيري نظمه حزب جماعتي إسلامي (حزب الإسلام) في كراتشي بباكستان.
أذات حسينين/ AP Images©

الهوية الجماعية

يتم ترسيخ الهوية الجماعية بالنسبة لبعض الجماعات، خاصة الجماعات القومية/الإرهابية، في وقت مبكر جدا، بحيث يتم غرس الكراهية في النفس منذ نعومة الأظافر. وليس من الممكن المبالغة في التشديد على أهمية الهويات الجماعية وعمليات تشكيلها وتغييرها. والإرهابيون أشخاص أخضعوا هويتهم الفردية للهوية الجماعية، بحيث أن ما يخدم الجماعة أو المنظمة أو الشبكة هو الأمر ذو الأهمية الأساسية.

والآن، كيف تشكّل هذه الهوية الجماعية؟ تشير المقابلات التي أُجريت مع الإرهابيين المسجونين من دول الشرق الأوسط إلى أن عملية التشكيل تبدأ في مرحلة مبكرة جدا، كما يثبت الاستشهاد بهذين القولين النموذجيين لإرهابيين قوميين – انفصاليين في فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين:

أنتمي إلى أسرة متدينة كانت تتبع جميع التعاليم الإسلامية. وقد كان وعيي السياسي الأول أثناء الصلاة في المسجد. وهناك أيضاً طلب مني أن ألتحق بصفوف دينية. وفي سياق هذه الدروس، كان الشيخ يُدخل بعض الخلفية التاريخية التي كان يحدثنا خلالها عن كيفية طردنا من فلسطين.

و:

كان الشيخ يوضح لنا أهمية وجود موقع أمامي عسكري لقوات الدفاع الإسرائيلية في قلب المخيم. وشبهه بسرطان في جسم الإنسان يهدد وجوده نفسه.

نيسان/أبريل ٢٠٠٦، الرئيس شين فين جيري أدامز في حفل بمناسبة الذكرى السنوية التسعين لبدء انتفاضة الثوار الإيرلنديين ضد البريطانيين في إيرلندا الشمالية.
©AP Images

ولم يكن الانضمام للمجموعة أمراً غير معتاد. والحقيقة هي أننا حين سألنا عن سبب انضمامهم أبلغنا بأن الجميع كانوا ينضمون وبأن أي شخص لم ينضم في تلك الفترة (الانتفاضة) كان يعامل كمنبوذ.

وكان يتم التعريف بالقضية وتحقيق اعتناقها في سن الطفولة. وكان هناك نقل للكراهية "بيننا" و"بينهم" من جيل إلى آخر. وكان الأطفال قد سمعوا من آبائهم، سواء في حانات إيرلندا الشمالية أو في مقاهي بيروت والأراضي المحتلة ما فعلوه "هم" "بنا"، وكيف سرقوا "هم" أراضينا وقاموا "هم" بإذلالنا. وكان الأبناء الأوفياء لوالديهم، الذين تعرضوا لأذى النظام، ينفذون العمليات الانتقامية ضد الـ"هم".

كيف برر هؤلاء الإرهابيون ما قاموا به من أعمال بالغة القسوة لخدمة قضيتهم؟ كان أحد الأجوبة معبرا بشكل خاص:

العمل المسلح يعلن أنني هنا، أنا موجود، أنا قوي، أنا الذي يتحكم، أنا في الميدان، أنا على الخريطة.

فالمسألة إذن هي قوة الذي لا يملك القوة، وأهمية الذي لا يتسم بالأهمية. ويساعد ذلك على توضيح سبب الصعوبة البالغة في التخلي عن درب الإرهاب.

الأصولية الدينية والارهاب الانتحاري

يمثل ما ذكر أعلاه فهماً لنفسية الإرهابي القومي – الانفصالي. ولكن ماذا عن نفسية الإرهابي الديني الأصولي؟ هنا نجد أفرادا "يقتلون باسم الله". وقد أعطيت أعمالهم مغزى مقدساً من قبل رجل الدين المتطرف، سواء كان آية الله، أو حاخاما، أو

بعد مرور عام، في ٨ أيار/مايو ٢٠٠٧، الوزير الأول لإيرلندا الشمالية إيان بيزلي ونائب الوزير الأول مارتن ماكغنيس من شين فين بعد تأدية اليمين الدستورية كوزيرين تنفيذيين يتقاسمان السلطة المعادة إلى الجمعية الوطنية الإيرلندية الشمالية في مبنى ستورمونت، مقر البرلمان المحلي، في بلفاست.
نيال كارسون/©AP Images

قسيسا. وبما أنهم "مؤمنون حقيقيون" يتقبلون تفسير رجل الدين المتطرف للكتب المقدسة بدون جدال، فإنهم لا يشعرون بالتأرجح والتناقض في المشاعر الذي يشعر به القوميون-الانفصاليون في ما يتعلق بدرجة العنف.

ومن الأسئلة التي وجهناها للإرهابيين الإسلاميين المتشددين من حزب الله وحماس الذين أجرينا معهم مقابلات سؤال يتعلق بتبريرهم لأعمال الإرهاب الانتحارية، حيث أن القرآن يحرّم الانتحار على وجه التخصيص:

صور مفجرين انتحاريين فلسطينيين على جدار فوق صور ضحايا إسرائيليين وحافلات ركاب (أوتوبيسات) إسرائيلية مدمرة في معرض بجامعة بيرزيت قرب مدينة رام الله بالضفة الغربية. يجمع بعض الأطفال الفلسطينيين صور الانتحاريين.
محمد محيسن/ ©AP Images

هذا ليس انتحارا. الانتحار ضعيف وأناني ومضطرب عقليا. هذا استشهاد.

أدلى عالم الإرهاب الشهير آريل ميراري بملاحظة هامة في خريف العام ٢٠٠٤، مشيرا إلى أن الإرهاب الانتحاري "طبيعي" جدا. فقد أشار إلى أنه فيما كان يسير في ساحة هارفارد (بولاية مساشوسيتس)، استوقفته فكرة أن المراهقين هم مراهقون لا يختلفون عن بعضهم بعضاً في جميع أنحاء العالم. وحين سألته عما يعنيه بذلك قال لي:

عندما دخلت محلا للبيتزا في كامبريدج كان المراهقون يدردشون عن فريق [كرة القدم] المفضل لديهم، وهو فريق "باتريوتز" في نيو إنغلاند (كان ذلك خلال مباريات التصفية لبطولة السوبربول)، عن أبطالهم في الفريق كرامي الكرة توم برادي، وكيف أنهم يرغبون في أن يكونوا ذات يوم حين يكبرون نجوما في كرة القدم كأبطالهم. ويحدث الشيء نفسه في مخيمات اللاجئين في الأراضي المحتلة؛ ولكن فريقهم المفضل هو حماس وأبطالهم هم الشهداء، وهم يرغبون في أن يكونوا ذات يوم حين يكبرون شهداء مثل أبطالهم. كان الشيء طبيعيا إلى درجة مرعبة.

ومما قاله حسن سلامه، وهو من القادة غزيري الإنتاج المسؤولين عن الانتحاريين الفلسطينيين:

العملية الاستشهادية هي أعلى مستوى في الجهاد، وتبرز عمق إيماننا. والمفجرون (الاستشهاديون) هم محاربون أتقياء ينفذون واحداً من فروض الدين الأكثر أهمية.

وليس هناك تفسير سببي واحد لسيكولوجية الإرهاب الانتحاري. ويحدد محمد حافظ، في مقاله الذي حمل عنوان "صنع القنابل البشرية" ثلاثة أمور كشروط مسبقة: ثقافة الاستشهاد، قادة استراتيجيون لتوظيف هذا التكتيك، وتوفر إمدادات من المتطوعين المستعدين لذلك. والواقع هو أنه لم تكن هناك أي علاقة تربط بين جماعتين كانتا من أكثر من استخدم هذا الأسلوب، وهما نمور التاميل وحزب العمال الكردستاني (المجموعة الكردية الانفصالية في تركيا)، بالأصولية الإسلامية.

وقد وضع علماء الاجتماع الإسرائيليون سيراً لعينة من ٩٣ انتحارياً فلسطينياً بعد قيامهم بتفجيرات انتحارية. وقد تراوحت أعمارهم بين ١٧ و٢٢ سنة، وكانوا غير متعلمين وعاطلين عن العمل وغير متزوجين. وفي الحقيقة أنهم كانوا شبابا لم يكتمل نضوجهم بعد، وأبلغ كل منهم من قبل قادة الانتحاريين عندما دخلوا المنزل الآمن: أمامك حياة تافهة عديمة القيمة (كانت الإحصاءات في المخيمات تضع معدل البطالة بين ٤٠ إلى ٧٠ بالمئة، خاصة بالنسبة للأشخاص الذين لم يكملوا الدراسة الثانوية)، ويمكنك أن تفعل شيئا ذا مغزى بحياتك، وسوف يسجل اسمك في قاعة الشهداء، وستكتسب أسرتك مكانة مرموقة، وستفتخر بك، وستحصل على فوائد مالية". ومنذ لحظة دخولهم المنزل الآمن، لم يترك الشبان وحدهم، وكان هناك شخص ينام معهم في الغرفة نفسها في الليلة التي تسبق العملية للتأكد من عدم تراجعهم، كما تمت مرافقتهم فعلياً إلى موقع "العملية الاستشهادية".

وعلى العكس من ذلك، كان مختطفو الطائرات الانتحاريون في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أكبر سنا (٢٨ إلى ٣٣ سنة)، وكان زعيم المجموعة محمد عطا، الذي كان يبلغ الـ ٣٣ من العمر، واثنان من زملائه من طلاب الدراسات العليا في الجامعة التكنولوجية بمدينة هامبرغ. وكانوا أبناء أسر ميسورة الحال تنتمي إلى الطبقة المتوسطة في المملكة العربية السعودية ومصر. وكانوا بالغين مكتملي النضج أخضعوا فرديتهم لسحر زعامة أسامة بن لادن المدمرة. وأصبحت قضيته هي مهمة أتباعه الرئيسية. ومن المثير للاهتمام أنهم، خلافا للانتحاريين الفلسطينيين، ظلوا

يعيشون وحدهم لمدة تصل إلى سبع سنوات في الغرب، معرضين لفرص وإغراءات الديمقراطية الغربية، وقد تظاهروا بالاندماج في المجتمع فيما حافظوا على تركيزهم الداخلي الدقيق الذي لا يحيد عن مهمتهم بأن يموتوا آخذين معهم الآلاف من الضحايا الأبرياء.

التحديات الجديدة

من التطورات المقلقة بشكل خاص بالنسبة لعلم النفس الاجتماعي للإرهاب، وهو تطور شديد بشكل خاص في أوروبا الغربية، تطرف الجيل الثاني للمهاجرين المسلمين. وقد جاء أهاليهم إلى بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا بحثا عن حياة أفضل، ولكنهم ظلوا منفصلين ثقافيا، وأصبح الجيل الثاني متطرفا، كما تمثل في تفجير محطة القطارات بمدريد في ١١ آذار/مارس ٢٠٠٤ وبتفجيرات المترو بلندن في ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٥.

ومن التحديات المفزعة بشكل خاص التحدي الذي تشكله "وسائل الإعلام الجديدة"، قنوات الأخبار المتواصلة كفضائية الجزيرة وأيضا الإنترنت بصورة خاصة. وقد قدّر غابريل وايمان في مقاله بعنوان *إرهاب على الإنترنت* أنه كان هناك في العام ٢٠٠٦ حوالي ٤,٨٠٠ موقع إلكتروني إسلاموي متطرف تغزل وتنشر رسالة الكراهية المناهضة للغرب، وتسهم في تكوين الهويات الجماعية لإرهابيي الغد.

ما هي مضامين مقاومة الإرهاب؟ إذا قبل المرء فرضية أن الإرهاب هو نوع خطير من الحرب النفسية، يشن عبر وسائل الإعلام، فإن المرء لا يقاومه بالقنابل الذكية والصواريخ بل بالحرب النفسية المضادة. وهذا يوحي بأربعة عناصر في برنامج عمليات إعلامية هي:

- منع الإرهابيين المحتملين من الانضمام إلى المجموعة.
- إحداث انشقاق في المجموعة.
- تسهيل الخروج من المجموعة.
- تقليص الدعم للمجموعة وتجريد قادتها من شرعيتهم.

ولكن، وكما أشارت إحدى النتائج التي استخلصتها مجموعة عمل قمة مدريد: "سيتطلب تغيير ثقافة الكراهية والعنف عقودا. وفي هذا الصراع، من الضروري المحافظة على المعايير الأخلاقية الرفيعة، وذلك على سبيل المثال، بتعزيز حكم القانون والكون قدوة في الحكم الرشيد والعدالة الاجتماعية. فالحياد عن هذه المعايير يعني خفض مستوانا إلى مستوى الإرهابيين وإلحاق الضرر بالديمقراطية المتسامحة التحررية.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

النساء كضحايا وموقعات ضحايا

ميا بلوم

الدكتورة ميا بلوم أستاذة مساعدة في كلية الشؤون العامة والدولية بجامعة جورجيا في مدينة أثينز بولاية جورجيا.

في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر، ٢٠٠٥، قامت موريل ديكوك، وهي بلجيكية اعتنقت الإسلام المتطرف، بنسف نفسها في حادث تفجير سيارة انتحاري في العراق. وفي اليوم نفسه لم ينفجر حزام ساجدة عتروس الريشاوي الناسف في حفل زفاف بأحد فنادق عمان.

هذه المرأة العراقية، التي فقدت ابنها بعد انفجار سيارة مفخخة في عملية انتحارية عند نقطة تفتيش للشرطة في بغداد، بالعراق، في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، ليست سوى واحدة من آلاف ضحايا الإرهاب.
هادى مزبانين/ ©AP Images

وقد وقعت في الفترة التي انقضت منذ شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، حين فجرت انتحارية نفسها في مدينة تل عفر الشمالية الغربية في العراق متسببة بمقتل ثمانية من المنضمين الجدد إلى الجيش العراقي وبإصابة ٣٠ آخرين بجراح، عدة حوادث مشابهة في العراق. ففي شهر كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام نسفت امرأتان نفسيهما في غرفة صف بأكاديمية الشرطة ببغداد، مما أدى إلى مقتل ٢٧ شخصا، وفي ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠٧، قامت انتحارية بتفجير نفسها وقتلت ٤٢ شخصا وأصابت ٥١ آخرين بجراح في ثاني أكبر جامعة ببغداد، جامعة المستنصرية.

ورغم الصدمة التي اقترنت بالحادثين المذكورين أعلاه، فإن النساء ما فتئن يشاركن في الحركات الإرهابية منذ زمن طويل. وكان بعضهن ناشطات جدا في فترتي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي في المنظمات الإرهابية الأميركية اللاتينية والأوروبية، وشكلن في بعض المجموعات، ما يصل إلى ثلث الأعضاء، كما كان الحال بالنسبة للجيش الأحمر وحركة الثاني من يونيو/حزيران بألمانيا. إلا أن تغير وظائف النساء من أدوار مساعدة في معظمها إلى أدوار أكثر نشاطا في التنفيذ الميداني، كانتحاريات مثلا، ظاهرة أكثر حداثة. وكانت المفجرة الانتحارية الأولى فتاة لبنانية في السابعة عشرة من العمر نسفت نفسها قرب قافلة إسرائيلية في العام ١٩٨٥. وقد أدى دور النساء المتزايد هذا في الإرهاب إلى بروز أسئلة جديدة.

وقد اشتركت النساء كمنفذات عمليات ميدانية انتحارية في أكثر من نصف المنظمات السبع عشرة تقريبا التي استخدمت تكتيك التفجيرات الانتحارية. وقد كانت هناك، بين العامين ١٩٨٥ و٢٠٠٦، أكثر من ٢٢٠ مفجرة انتحارية، يمثلن حوالي ١٥ بالمئة من العدد الإجمالي لهذه التفجيرات. كما أن عدد المفجرات الانتحاريات ارتفع في المنظمات الدينية وغير الدينية أيضا، مع أن المجموعات الدينية قاومت في البداية استخدام النساء في ذلك النشاط.

السؤال "لماذا؟"

من المعتاد بعد وقوع مثل هذه الأحداث أن تقوم وسائل الإعلام بتحليل الدوافع المفترضة للانتحارية، ولكن رد الفعل الطاغي هو الصدمة لأن المرأة – التي يتم تصورها عادة على أنها الضحية لا مرتكبة العنف، هي التي فعلت ذلك. وكثيراً ما يعكف خبراء الإرهاب وعلماء النفس والمحللون السياسيون على القيام بعملية "تشريح نفسي" يفحصون فيه أين نشأت المرتكبة وأين تعلمت والإخفاق الذي حدث وجعلها تتحوّل إلى العنف. ومن الافتراضات المعتادة أنها لا بد وأن تكون مريضة تعاني من الاكتئاب أو الجنون أو الرغبة في الانتحار أو من اضطراب عقلي شديد يجعلها معادية للمجتمع، والافتراض السائد بشكل ساحق هو أنه لا بد وأن يكون رجل ما قد أكرهها على القيام بذلك.

إلا أن سنين من الأبحاث توصلت إلى أن انتشار الأمراض النفسية واضطرابات الشخصية ليس أكثر احتمالاً بين الإرهابيات مما هو بين غير الإرهابيات في المجتمعات نفسها. ومع أننا لم نعد نؤمن بأن الرجال هم الذين يرغمون معظم النساء على الإرهاب، إلا أن الرجال الذين يلعبون دوراً في حياة هؤلاء النساء يلعبون دورا هاما في تجنيدهن للإرهاب. وقد أشارت ديبورا غالفين إلى أن "بعض النساء يجندن في المنظمات الإرهابية من قبل

شباط/فبراير ٢٠٠٦، طالبات إيرانيات يملأن قسائم تسجيل تشير إلى استعدادهن للقيام بهجمات انتحارية.
حسن ساربخشيان/ AP Images©

أصدقائهن الشباب. ومن الخصائص المهمة التي قد يتسم بها انخراط الإرهابية الأنثى هو سيناريو ... العشيق أو العشيقة/الشريكة في الجريمة. والواقع هو أنه في حين أن الريشاوي فشلت في محاولتها قتل المحتفلين بالزفاف في عمان، فإن زوجها، الذي كان يرافقها، نجح في قتل ٣٨ شخصا.

وتروي الصحفية البريطانية أيلين ماكدونالد كيف فسرت "بيغونا" سبب انضمامها إلى منظمة (ETA) (مجموعة الباسك القومية الإرهابية في إسبانيا وفرنسا) في سن الخامسة والعشرين بقولها "لأن رجلا كنت أعرفه كان عضوا". وهناك إشاعات كثيرة عن قيام رجال بإغواء نساء للمشاركة في العنف من خلال إغرائهن بارتكاب نشاط جنسي مشين، يتطلب من ثم "عملاً استشهادياً" بوصف ذلك الطريقة الوحيدة لتطهير اسم الأسرة وإنقاذ ماء الوجه. ومع ذلك فإن من الخطأ الافتراض بأن النساء هن مجرد ضحايا أو حجارة شطرنج يحركها الرجال من دون أن تكون لديهن أي دوافع سياسية. والحقيقة هي أن واحدا من أهم مؤشرات التنبؤ بانخراط النساء في حركة معينة هو علاقتها بإرهابي/إرهابية سابق أو حالي في تلك الحركة. وفي حالة الريشاوي فإن العديد من أشقائها قتلوا في العراق وهم يحاربون في التمرد ضد قوات التحالف، في حين أن زواجها قبل أيام قليلة من العملية التي شاركت فيها كان قد رُتب لتسهيل العملية.

يوضح بعض علماء النفس أن الإرهابيين يعانون عادة من "التضرر النرجسي" – وهو أساسا تضرر دائم للصورة التي يحملونها عن أنفسهم ولاحترامهم لذاتهم يكون شديداً إلى حد إرغام الذات المرفوضة على السعي إلى "هوية إيجابية" جديدة (أي إحراز إحساس "بالانتماء" كعضو في جماعة إرهابية). ويجادل العالم النفسي جوزيف مارغولين بأن "الكثير من السلوك الإرهابي هو استجابة لإحباط في احتياجات أو أهداف سياسية واقتصادية وشخصية مختلفة". ويضيف الدكتور راندي بورم: "إن الصلة بين الإحباط (تعرض المرء للحيلولة دون تحقيقه هدفاً أو ممارسة سلوك) والعدوان [قد يكون] "توضيحا رئيسيا" لفهم سبب العنف البشري". ويذهب بعض الخبراء إلى حد التأكيد على أن معظم الإرهابيين هم ممّن يكادون يكونون مصابين بمرض التوحد أو الانطواء على الذات، وبذلك ينجذبون نحو إيديولوجيات تبسط العالم فاصلة إياه إلى أسود وأبيض، إلى الخير والشر.

الأسباب الجذرية

يحدد جميع المؤلفين في حقول علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية أسباباً جذرية يعتبرونها أساسية لفهم سبب وقوع معظم الحوادث الإرهابية. إلا أن معظم ما يتم إدراجه ضمن الأسباب الجذرية يفسر أيضاً سبب تجنيد أعضاء الجماعات السياسية غير الإرهابية، وبذلك يقع ضمن تصنيف "ضروري وإن يكن غير كاف" في التفسيرات التي تسعى إلى إيضاح سبب تأدية هذه العوامل، بالنسبة للبعض، إلى التحول إلى العنف. وهي تشمل ما يلي:

- الافتقار إلى الديمقراطية والحريات المدنية وحكم القانون.
- دول فاشلة أو ضعيفة توفر ملاذاً آمناً للإرهابيين.
- تحديث مفرط في السرعة.
- إيديولوجيات متطرفة – العلمانية والدينية على حد سواء.
- تاريخ من العنف السياسي والحروب الأهلية والثورات وأنظمة الحكم الدكتاتورية أو الاحتلال.
- حكومات غير شرعية أو فاسدة.
- قمع من قبل احتلال أجنبي أو قوى استعمارية.
- التعرض للتمييز على أساس خصائص الانتماء (الإثنية أو العرقية أو الدينية.)
- الظلم الاجتماعي.
- وجود زعماء إيديولوجيين كاريزماتيين.

ويرى خبراء مثل يورام شوايتزر وفرحانة علي أن النساء يملن إلى التأثر بدوافع "شخصية" أكثر من تلك التي تؤثر في الرجال. ويمكن تلخيصها بأربعة، هي الانتقام وغسل عار الخطيئة بالتضحية في سبيل الآخرين والاحترام والعلاقة. وهي تشمل على وجه الخصوص ما يلي:

- فقدان شخص عزيز (يكون عادة الذكر المهيمن في حياتهن – الزوج أو الوالد أو الشقيق).
- حاجة إلى إعادة صياغة أنفسهن بسبب سوء تصرف جنسي مزعوم أو فعلي.
- عدم القدرة على إنجاب الأطفال أو كونهن يعتبرن غير صالحات للزواج.

- رغبة لتحسين وضع النساء في مجتمعهن.
- إثبات أنهن متفانيات تماماً كالرجال في خدمة القضية.
- كونهن شقيقات أو بنات أو زوجات متمردين معروفين.

خلال تجمع جماهيري في العام ٢٠٠٤ تأييدا لمنظمة حماس، صبي فلسطيني يحمل صورة امرأة فجرت نفسها عند نقطة العبور الرئيسية بين إسرائيل وقطاع غزة، مما أدى إلى مقتل أربعة أشخاص.
خليل حمرا/ AP Images©

أوجه اختلاف وتشابه

إلا أن الافتراض بأن دافع النساء هو أسباب مختلفة عن أسباب تحفيز الرجال مسألة مشكوك فيها تحتمل النقاش والجدل. فمعظم النساء، كالرجال، يستلهمن أسباباً شخصية وسياسية للانخراط في أعمال العنف. ويقول العالم النفسي، آريل ميراري، إنه "يبدو أن الثقافة بصورة عامة والدين بصورة خاصة غير هامين نسبيا في مجال ظاهرة الانتحار الإرهابي. فالانتحار الإرهابي، مثله في ذلك مثل أي انتحار آخر، هو في الأساس ظاهرة فردية وليست جماعية. وما يوفره الإطار الإرهابي هو مجرد الذريعة (لا الدافع الفعلي) للقيام به ولإضفاء صفة الشرعية على تنفيذه بطريقة عنيفة".

ويشتمل السبب الدافع، للإرهابيين الذكور والإناث، على نظرة إلى العالم تضفي مغزى ومعقولية على موتهم الوشيك وتربطهم في الكثير من الأحيان بشكل ما من أشكال "الخلود". وقد أصبح هناك في الآونة الأخيرة ميل لافتراض وجود علاقة طبيعية بين الدين واستعداد الشخص لأن ُيقتل ولأن َيقتل. إلا أنه لم يتم حتى الآن الإثبات بالاستنتاج بأن هناك صلة سببية قطعية بين الدين والإرهاب.

والحقيقة هي أن جماعات إرهابية عديدة – كالألوية الحمراء في إيطاليا والجيش الأحمر في ألمانيا والدرب المضيء في بيرو – كانت، تاريخياً، اشتراكية متطرفة دون أي رابطة دينية على الإطلاق. ولكنها وضعت تحرير النساء ضمن برنامجها السياسي.

ويبدو أن معظم النساء المنخرطات في الإرهاب في هذه الأيام يقمن بدور الذخيرة رخيصة الثمن. ويبدو بشكل عام أنهن أصبحن ابتكارا تكتيكيا لأنهن يخرجن عن إطار الصورة التقليدية والنمطية التي توصلت إليها أوساط مقاومة الإرهاب. وبالإضافة إلى ذلك، وكما يشهد كل من شاهد فيلم *معركة الجزائر* فإن عناصر التنفيذ الميداني الإناث يستطعن الاندماج بسهولة مع السكان المدنيين المنتمين إلى العدو لأغراض الاستطلاع: ملابسهن تغطي القنابل بدون صعوبة، ويستخدمن أحياناً مظهرهن كنساء حوامل للتثني عن تفتيشهن. ولكن الواقع هو أنه لا يسمح سوى لعدد ضئيل من النساء بتولي أدوار قيادية، حتى في الجماعات التي يشكلن فيها ٣٠ إلى ٦٠ بالمئة من منفذات عمليات التفجير. وتقول كلارا بيلر، متحدثة عن استخدام المنظمات الإرهابية الفلسطينية (للنساء): "لا تشارك المرأة الفلسطينية إلا نادراً في القيادات العليا لعملية صنع القرار في هذه الجماعات. وقد تتطوع النساء، أو ... قد يرغمن على القيام بهجوم قاتل، ولكن دور النساء يمليه في النهاية هرم السلطة الأبوية الذي يحكم المجتمع الفلسطيني ومجموعاته الإرهابية".

والواقع هو أن الأشخاص المنخرطين في أعمال العنف هم قلة ضئيلة مقارنة بعدد أعضاء أي حركة. وبما أن الإرهابيين ليسوا سوى جزء من المجموعة التي يدعون تمثيلها فإن معارضتهم الفعلية تأتي عادة من المعتدلين في مجتمعهم ممن يفضلون خيارات بديلة للعنف. ولذا فإن الإرهابيين يسعون إلى دفع السلطات إلى القيام برد عنيف سوف يستدر التعاطف معهم والدعم لهم، ويدفع عدداً أكبر من أبناء المجتمع إلى التطرف، ويساعد في حشد المزيد من الأعضاء الجدد. وتأمل المنظمات الإرهابية، من خلال استخدامها عناصر التنفيذ الميداني النسائية، في الحصول على رد فعل مبالغ فيه ضد النساء في المجتمع، مما سيشكل طريقة مؤكدة النجاح لإثارة المزيد من السخط والغضب.

لا وجود للأنماط العامة

من الأهداف الرئيسية للإرهاب إشاعة وتعزيز الخوف والتشكك والغموض في دائرة تتجاوز الضحايا المباشرين من خلال إزهاق الأرواح وتدمير الممتلكات أملا في فرض ثمن أعظم على المدى الطويل. ويريد الإرهابيون من العدو أن ينفق الوقت والمال في تعزيز الأمن؛ وما ينشدونه هو فرض ضريبة هائلة على مجتمع العدو، بإرغامه على تحويل موارده من الإنتاج إلى تدابير غير منتجة.

ومن مبادرات مقاومة الإرهاب المنطوية على احتمال الإفادة مناشدة المجتمع الأكبر ودعم المعتدلين. وقد لا تؤدي معالجة الأسباب الرئيسية إلى القضاء على العنف تماماً، ولكنها قد تساعد في إثبات كون المعتدلين قادرين على تقديم مساعدات وخدمات للسكان في حين أن الإرهابيين لا يستطيعون ذلك. وتشير معظم الاستطلاعات إلى أن دعم العنف يتقلص حين تكون هناك بدائل قابلة للتطبيق وتوقعات أفضل للسلام.

وفي ما يتعلق بالنساء، من المهم التأكيد على أن بإمكانهن القيام بدور إيجابي في مجتمعاتهن وتقديم إسهام أعظم وذي معنى أكبر في حياتهن مما يستطعن بموتهن. ومما يساعد في ذلك دعم المنظمات النسائية الشعبية التي تفيد المجتمع ككل. ويمكن لمثل هذه المنظمات أن تشكّل دعامة المجتمع المدني الذي يستطيع أن يربط بين المجتمعات المختلفة وأن يضع الأساس لنشوء ديمقراطية حقيقية.

وأهم مسألة يجب أن تكون واضحة هو أنه لا توجد أنماط عامة، ولا صور نمطية يعول عليها، ولا طريقة لتفسير كل نوع من أنواع الإرهاب.

ويوضح العالم النفسي جون هورغان أن كل حركة إرهابية معقدة بطريقتها الخاصة، وأنه حتى أصغر المجموعات تتميز بطائفة من الأدوار تؤدي إلى "أنواع مختلفة من الانخراط"، للرجال والنساء على حد سواء. يضاف إلى ذلك أن هناك أنواعا مختلفة كثيرة من الإرهاب، يتم القيام بها لأسباب مختلفة، بحيث أنه لا يمكن تحديد سبب واحد لأي نوع واحد من أنواع الإرهاب – الإسلامي والسلفي العالمي والقضية الواحدة (مثلا بيئية أو حقوق الحيوانات) والعنصري اليميني والقومي – الانفصالي – ناهيك عن تحديد سبب واحد يوضح دوافع جميع النساء.

وقد جادلت في مكان آخر بأن هناك دوافع تنظيمية مدروسة لاستخدام النساء. ويجري زعماء الحركات الإرهابية حسابات مدروسة متروية للربح والخسارة لاختيار التكتيكات والأهداف والمنفذين، والمفجرات الانتحاريات سلاح رخيص. كما أن النساء يكسبن قدراً أكبر بكثير من اهتمام وسائل الإعلام وقد يدفعن الرجال إلى الشعور بالخجل والتجند بدلاً من السماح للنساء "بالقيام بعملهم".

إلا أنه ما من شك في أنه سيكون من الممكن الحصول على معلومات أكثر فائدة لو تمكن البحاثة من التحدث مباشرة مع أعضاء في الحركات الإرهابية الأجنبية المعروفة. ومع أنه تم تحديد الوصول إلى مثل هذه المصادر الأولية، إلا أن هورغان يجادل بأنه "مهما بدا ذلك غير مستساغ، لا بد لنا لكي نفهم تطور وبنية السلوك الإرهابي، أن نلتقي ونتحدث مع أشخاص شاركوا أو يشاركون في العنف الإرهابي". ويصدق هذا بشكل خاص بالنسبة لتحديد سبب اختيار النساء، المعروفات تقليديا بأنهن مربيات راعيات، لأن يصبحن قاتلات.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

الإرهاب: تاريخ موجز

وولتر لاكير

الدكتور وولتر لاكير، متقاعد حاليا من مناصب أكاديمية متعددة، وكان أحدث ما شغله هو منصب المدير السابق لمجلس الأبحاث الدولي في مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في مدينة واشنطن العاصمة، وهو حاليا بحاثة متميز.

ما هو الإرهاب؟ هناك أكثر من مئة تعريف للإرهاب. ولدى وزارة الخارجية الأميركية تعريفها الخاص، العنوان ٢٢ من المادة ٢٦٥٦ من مدونة القانون الأميركي: (الإرهاب هو) "عنف متعمد، مدفوع بدوافع سياسية، ترتكبه ضد أهداف غير محاربة جماعات شبه قومية أو عملاء سريون، المقصود منه عادة هو التأثير على جمهور". ولدى وزارة الدفاع الأميركية تعريف آخر مختلف، وكذلك لدى مكتب التحقيقات الفدرالي، في حين أن كاتب هذا المقال وضع شخصياً تعريفين أو ثلاثة. إلا أنه ما من تعريف مرض تماماً بين هذه التعريفات.

لقد قيل أكثر مما ينبغي، في رأيي، حول عنصر "الأهداف غير المحاربة". إذ ليس هناك جماعة إرهابية في التاريخ اقتصرت هجماتها على جنود أو رجال شرطة. وماذا سيكون الوضع إذا قامت مجموعة من الرجال المسلحين بمهاجمة رجال شرطة في الصباح ومدنيين في المساء: هل رجال المجموعة إرهابيون، أو هل ينتمون إلى تصنيف مختلف، أو هل يغيرون طبيعتهم خلال يوم؟

لن يتم التوصل أبداً إلى وضع تعريف كامل وشامل للإرهاب لسبب بسيط هو أنه ليس هناك إرهاب واحد، بل كانت هناك "إرهابات" (أي أنواع إرهاب) متعددة، يختلف كل منها عن الآخر بشكل كبير في الوقت والمدى، وفي الدوافع، وفي المظاهر والأهداف.

الدراسات الأولية

عندما بدأت الدراسة المنهجية للإرهاب في عقد السبعينيات من القرن الماضي، كان هناك اعتقاد – خاطئ – لدى البعض بأن الإرهاب كان تقريبا وقفاً على جماعات يسارية متطرفة تحتكره دون سواها، كالألوية الحمراء الإيطالية أو الجيش الأحمر الألماني أو المجموعات الأميركية اللاتينية المختلفة. (كما كان هناك إرهاب إثني – قومي، كما كان الحال في إيرلندا الشمالية، إلا أنه لم يكن يتم إبرازه على أنه بنفس الأهمية). من هنا جاء الاستنتاج: يبرز الإرهاب إلى حيز الوجود حيثما تعرض الناس للاستغلال والقمع الشديد. ولذا فإنه من الممكن إنهاء الإرهاب بسهولة من خلال إزالة الاستغلال والقمع.

إلا أنه كان ينبغي أن يكون واضحاً حتى آنذاك أن هذا لا يمكن أن يكون تفسيراً صحيحا إذ إنه لم يكن هناك أي وجود إطلاقاً للإرهاب بالذات في أكثر الأنظمة قمعا في القرن العشرين - في ألمانيا النازية وروسيا الستالينية. وصحيح أن الإرهاب لم يكن موجودا في أغنى المجتمعات وأكثرها تطبيقاً للمساواة – ولكنه لم يكن موجودا أيضا في أفقر الدول.

وبانقضاء عقد من الزمن كان معظم الجماعات الإرهابية اليسارية المتطرفة قد اختفى. وعندما كان يظهر أي إرهاب خلال عقد الثمانينيات كان يأتي إلى حد كبير من خلايا صغيرة لليمين المتطرف. لقد وقعت بعض عمليات اختطاف وتفجير للطائرات (كتلك التي حدثت فوق لوكربي باسكتلندا)، كما هوجم، عدد قليل من السفارات أو حتى تم الاستيلاء عليها (كما حدث في طهرا ن)، إلا أن هذه العمليات لم تنفذ من قبل جماعات من اليسار المتطرف.

محققون يتفحصون حطام طائرة بان أميركان التي كانت تقوم بالرحلة ١٠٣ وانفجرت فوق لوكربي باسكتلندا في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨. وقد قتل جميع الأشخاص الذين كانوا على متنها وعددهم ٢٥٩ شخصا و١١ شخصا على الأرض. وتناثرت جثث الضحايا والأنقاض فوق منطقة بلغت مساحتها ٢,١٨٩ كيلومترا مربعا.
©AP Images

وكان العمل الإرهابي الذي أوقع أضخم عدد من الضحايا في الولايات المتحدة قبل ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، هو تفجير المبنى الحكومي الفدرالي في أوكلاهوما سيتي في العام ١٩٩٥، الذي نفذه يمينيان متطرفان يتعاطفان مع حركة مليشيا أميركية. واستمر الإرهاب القومي (في إيرلندا الشمالية ومنطقة الباسك في إسبانيا وسريلانكا وإسرائيل وبعض الأماكن الأخرى)، إلا أن الإرهاب الإسلامي، الذي يلعب دورا بارزاً جداً في هذه

الأيام، لم يكن قد ظهر بعد، إلا في بعض دول الشرق الأوسط، وبصورة متقطعة.

أما اليوم، فقد أصبح الإرهاب والقاعدة، والمجموعات الأخرى المماثلة المدفوعة بالتطرف الديني، مرادفين ، ربما بشكل حتمي، لأن معظم الإرهاب المعاصر ينفذ من قبل أتباعها. إلا أنه يجب مقاومة إغراء المساواة بين الإرهاب وهذه الجماعات لسبب بسيط هو أن الإرهاب سبق ظهور الإسلاموية المقاتلة بفترة طويلة، ولعله سيستمر في الوجود بعد اختفاء دعاة الجهادية الحاليين.

والإرهاب ليس عقيدة سياسية، ولو أن البعض حاول تحويله إلى إيديولوجيا؛ بل هو عوضا عن ذلك واحد من أقدم أشكال العنف – إلا أنه من البديهي أنه ليس كل العنف إرهابا. وربما كان ظهور الإرهاب قد سبق ظهور الحرب النظامية لأن قتال الجيوش يتضمن قدراً معيناً من التنظيم واللوجستيات المتقدمة لم يكن الإنسان البدائي يملكه.

الخلفية التاريخية

يظهر الإرهاب في العهد القديم للكتاب المقدس، وكانت هناك حوادث كثيرة من جرائم القتل السياسية، وحتى الاغتيالات المنهجية، في التاريخ اليوناني والروماني. وقد شغلت جريمة قتل يوليوس قيصر، على سبيل المثال لا الحصر، الكتّاب والفنانين على مدى الألفي سنة التالية. وشغل التساؤل حول ما إذا كان قتل المستبد (كما فعل وليام تيل، البطل القومي في الروايات السويسرية الزاخرة بأعمال البطولة) مسموحا به، أجيالا من علماء اللاهوت والفلاسفة.

اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فيردناند وزوجته على يد جماعة قومية صربية خلال زيارتهما لسراييفو بالبوسنه في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩١٤، كان الشرارة التي أشعلت الحرب العالمية الأولى.
©AP Images

ولم يكن هناك إجماع تام في الرأي، إلا أن رأي الأغلبية كان أن الإرهاب مسموح به في ظروف معينة. فعندما لا يترك ظالم مستبد – طاغية – هو عدو للبشرية جمعاء، ومنتهك للقوانين الإلهية والعدالة الإنسانية، سبيلاً آخر أمام ضحاياه للخلاص من القمع غير المحتمل، فإن ارتكاب عمل إرهابي يصبح عندها السهم الأخير، الملاذ الأخير للمظلومين، بعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى.

إلا أن الفلاسفة وعلماء اللاهوت كانوا يدركون، حتى آنذاك، وجود خطر كبير مقلق بإساءة استخدام مبدأ قتل المستبد المبرر، لإمكانية ادعاء اللجوء إلى استخدام الحجة الأخيرة أو السهم الأخير، عندما لا يكون هناك في الواقع سبب مبرر للقتل (كما كان الحال لدى قتل الملك هنري الرابع الطيب في فرنسا) أو حين تكون هناك طرق أخرى متوفرة للتعبير عن الاحتجاج والمقاومة.

في هذه الأثناء، ظهرت مجموعات صغيرة انخرطت في الإرهاب المنهجي على امتداد فترات طويلة، كطائفة الحشاشين السرية، المنبثقة عن الإسماعيليين المسلمين، التي قامت بعملياتها مما يعرف الآن بالعراق وإيران من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر، وقامت بقتل الحكام والولاة والخلفاء وأحد ملوك القدس الصليبيين. وكان الحشاشون روادا في الإرهاب الانتحاري – وكان سلاحهم دائما الخنجر، وبما أن ضحاياهم كانوا يتمتعون دائما بحراسة جيدة، فقد كانت فرص الفرار معدومة فعليا. وحتى اللغة التي استخدموها ما زالت باقية حتى الآن، فقد كان المقاتل *فدائيا*، وهو تعبير يستخدم حتى يومنا هذا.

واستمر النشاط الإرهابي عبر نهاية القرون الوسطى وحتى العصر الحديث، وإن يكن على مستوى أقل إلى حد ما. وكان هذه العصر هو عصر الحروب الكبرى، كحرب الثلاثين عاما (١٦١٨ – ١٦٤٨) والحروب النابليونية (١٧٩٩ – ١٨١٥). وفي مثل هذه الفترات الزمنية، حين كان يتم قتل وجرح عدد كبير من الناس في ساحات المعارك، لم يكن أحد يعير اهتماماً كبيراً لحادث عنف إرهابي يقع هنا وهناك على نطاق ضيق.

المد الإرهابي

شهد المد الإرهابي طفرة في أواخر القرن التاسع عشر. وكان من بين المجموعات النشيطة المتمردون الإيرلنديون والثوار الاشتراكيون الروس، وطائفة متنوعة من الفوضويين في جميع أنحاء أوروبا وأميركا الشمالية. إلا أن الجمعيات السرية كانت منخرطة أيضاً بنشاطات إرهابية خارج أوروبا – في مصر مثلا، وفي الهند والصين أيضاً – بهدف تحقيق التحرر القومي. وكان لبعض هذه الهجمات عواقب مأساوية؛ وكللت أخرى بالنجاح في المدى الطويل وليس في المدى القصير.

وكان عنف الإرهابيين في القرن التاسع عشر ملحوظا – فقد قتلوا قيصرا روسيا (أليكساندر الثاني)، بالإضافة إلى الكثير من الوزراء وكبار النبلاء والجنرالات والرئيسين الأميركيين (وليام ماكنلي في العام ١٩٠١، وقبله جيمس غارفيلد في العام ١٨٨١)، وملك إيطاليا الملك أمبرتو، والإمبراطورة (زيتا) في الإمبراطورية النمساوية – المجرية، ورئيس فرنسا سادي كارنو، وأنتونيو كانوفاس، رئيس وزراء إسبانيا – هذا على سبيل ذكر أشهر الضحايا. وقد اندلعت الحرب العالمية الأولى، بالطبع، نتيجة قتل الأرشيدوق فرانز فيردناند، وريث العرش النمساوي، في سراييفو في العام ١٩١٤.

وعند إعادة قراءة صحافة تلك الفترة (وروايات كبار الكتّاب من فيودور دوستوفسكي إلى هنري جيمس وجوزيف كونراد) من السهل أن يتكون لدى المرء انطباع بأن الإرهاب كان أكبر خطر يواجه البشرية وأن نهاية الحياة المتحضرة كانت وشيكة. ولكن خطر الإرهاب انتهى، كما حدث مراراً كثيرة قبل وبعد ذلك، وكما أشار الثوري البلشفيكي الروسي ليون تروتسكي في إحدى المناسبات، قُتل وزير ولكن آخرين عديدين كانوا متلهفين على الحلول محله.

ثلاثة أشخاص مجهولي الهوية يرتدون قبعات الباسك يجلسون أمام علم لمنظمة (ETA) (منظمة تحرير الباسك أو وطن وحرية الباسك) ظهروا في شريط فيديو تلفزيوني في العام ٢٠٠٦. وتسعى هذه المنظمة للحصول على دولة مستقلة عن إسبانيا، وهي مصنفة كمنظمة إرهابية.
©AP Images

الإرهاب المعاصر

عاد الإرهاب إلى الظهور بعد الحرب العالمية الأولى في دول مختلفة، كألمانيا ودول البلقان. وكان الفاشستيون والشيوعيون يؤمنون، قبل توليهم زمام السلطة، بالعنف الجماعي لا بالأعمال الإرهابية الفردية – مع بعض الاستثناءات العرضية، كاغتيال الزعيم الاشتراكي الإيطالي جياكومو ماتيوتي.

ولم يحدث الكثير من الإرهاب خلال الحرب العالمية الثانية وخلال العقدين اللذين جاءا بعدها. ولعل ذلك يوضح السبب في أن تجدد العمليات الإرهابية في عقد السبعينيات من القرن الماضي و، من باب أولى، ظهور الإرهاب الإسلاموي، فسر من قبل الكثيرين، الغافلين عن التاريخ الطويل السابق للإرهاب، على أنه شيء جديد كليا وغير مسبوق. وكان ذلك لافتا للنظر بشكل خاص بالنسبة للإرهاب الانتحاري. وكما أشرنا سابقا، فإن معظم الإرهاب حتى أواخر القرن التاسع عشر كان على شكل عمليات انتحارية، لأن الأسلحة الوحيدة المتوفرة كانت الخناجر، أو المسدسات قصيرة المدى، أو القنابل غير المستقرة إلى درجة كبيرة بحيث يرجح انفجارها في أيدي المهاجمين.

إلا أنه من الصحيح أن الإرهاب المعاصر يختلف من نواح جوهرية عن الإرهاب الذي كان يرتكب في القرن التاسع عشر وقبل ذلك.

فقد كان للإرهاب التقليدي "ميثاق شرف" خاص به: كان يستهدف الملوك والقادة العسكريين والوزراء وغيرهم من الشخصيات البارزة القيادية، ولكن إذا كان هناك خطر يهدد بإمكانية قتل زوجة أو أطفال الشخص المستهدف معه خلال الهجوم، كان الإرهابيون يمتنعون عن شن الهجوم، حتى ولو أدى ذلك إلى تعريض حياتهم للخطر.

أما اليوم فقد أصبح الإرهاب غير المميز بين الأشخاص هو القاعدة؛ ولم يقتل سوى عدد قليل جدا من السياسيين أو الجنرالات، في حين قُتل عدد كبير من الأشخاص الأبرياء كليا. لذا، فإن تعبير الإرهاب يحمل اليوم مدلولات سلبية جدا، ويصر الإرهابيون الآن على أن يطلق عليهم اسم مختلف. وحين نشر بوريس سافينكوف، الذي ترأس الثوريين الاشتراكيين الروس قبل الحرب العالمية الأولى، سيرته الذاتية، لم يتردد في إعطائها عنوان "مذكرات إرهابي". لكن ذلك أمر غير وارد في هذه الأيام – فالإرهابي العصري يريد أن يعرف كمناضل في سبيل الحرية، أو رجل عصابات، أو متمرد، أو ثوري – أي شيء ما عدا الإرهابي، قاتل الأبرياء عشوائيا.

إذا لم يكن هناك إجماع على تعريف الإرهاب، فهل يعني ذلك أن التشويش التام والمذهب النسبي سيسودان، وأن أي رأي مقبول كغيره؟ من الصحيح تماما، كما ينقل عادة، أن الإرهابي في نظر شخص ما هو مناضل في سبيل الحرية في رأي شخص آخر. ولكن حيث أن هناك حتى لأكبر المجرمين

المسؤولين عن القتل الجماعي في التاريخ معجبين بهم، من هتلر إلى بول بوت، فإن مثل هذه الحكمة لا تفيدنا كثيرا. ومعظم الأشخاص الذين درسوا الإرهاب من المتحررين بشكل معقول من التحيز سيتفقون معظم الوقت في حكمهم على عملية ما، حتى مع عدم وجود تعريفات مضبوطة للإرهاب. وقد قارن شخص ما الإرهاب بالمواد الإباحية أو البذاءة، التي يصعب تعريفها هي أيضا، ولكن المراقب الذي يملك بعض الخبرة سيتعرف عليها حين يراها.

ليست هناك طرق مختصرة لتوضيح سبب اختيار الناس لأن يصبحوا إرهابيين، وليست هناك صيغ سحرية أو قوانين مشابهة لقوانين نيوتن وآينشتاين في العالم الحقيقي. وتقدم من وقت لآخر وجهات نظر متبصرة جديدة، ولكنها لا تصمد أمام التفحص الناقد. وقد اقترح أخيرا، على سبيل المثال، أن الإرهاب لا يحدث إلا (أو بشكل أساسي) حيث يوجد غزو أجنبي للبلاد. ويصح هذا الرأي في بعض الحالات، كاحتلال نابليون لإسبانيا أو وجود القوات الأميركية في العراق. إلا أن إلقاء نظرة على الخريطة الجغرافية السياسية للإرهاب المعاصر يظهر أنه، في معظم الحالات، من سريلانكا إلى بنغلادش إلى الجزائر إلى أوروبا، لا يشكل الغزو الأجنبي عاملا حاسما. وحتى في العراق، فإن الأغلبية الساحقة لضحايا الإرهاب ليسوا من بين قوات الاحتلال، بل نتيجة لهجمات السنة ضد الشيعة والعكس بالعكس.

ظاهرة على مر الأجيال

هل يقدّم التاريخ أي دروس؟

مرة أخرى، ليست هناك أجوبة واضحة إلا بطريقة عامة جدا. لم يحدث الإرهاب، إلا فيما ندر، في أنظمة دكتاتورية فعالة. ويبدو، وهو أمر من المفارقات في العالم الحديث، أن الإرهابيين يستفيدون من حريات الفكر والتعبير والدين والحركة والتجمع التي توفرها الأنظمة الديمقراطية. كما أن الإرهاب مشكلة في الدول الفاشلة حيث تكون السلطة المركزية ضعيفة أو غير موجودة. فلم يحدث أي إرهاب، مثلا، في الشارع في إسبانيا في عهد فرانكو، ولكن حين تفككت دكتاتوريته، ظهر الإرهاب على الساحة السياسية. وفي الشرق الأوسط، تمكنت حتى الأنظمة الاستبدادية المعتدلة من القضاء على الإرهاب بدون صعوبة – تركيا وسوريا في عقد الثمانينيات من القرن الماضي، والجزائر ومصر في العقد التالي.

الرهينة السابق فيكتور آمبرغي يحتضن طفلا مجهول الهوية بعد عودته إلى الولايات المتحدة في ٢ تموز/يوليو ١٩٨٥. وكان آمبرغي بين الـ ١٥٣ راكبا دوليا وعضواً في طاقم رحلة تي دبليو إيه الجوية رقم ٨٤٧ التي اختطفها إرهابيون لبنانيون بعد إقلاعها بقليل في ١٤ حزيران/يونيو من اليونان. وقد احتفظوا بهم كرهائن لمدة أسبوعين.
©AP Images /دنيس كوك

وقد نجح الإرهاب أحيانا، ولكنه فشل في أحيان مماثلة وربما في أحيان أكثر، في تحقيق أهدافه. وقد أدى في بعض الحالات إلى نتيجة معاكسة لما أراد مرتكبوه تحقيقه.

ولكن الإرهاب ظاهرة مستمرة على مر الأجيال، وحتى لو هزمت، فقد تتكرر في موعد لاحق. وما من سبب جيد يدعو إلى توقع اختفاء الإرهاب في عصرنا. ففي عصر أصبحت فيه الحروب الشاملة مفرطة الخطورة والكلفة، أصبح الإرهاب هو الشكل السائد للنزاعات العنيفة. وسيظل الإرهاب باقياً طالما ظلت هناك نزاعات على وجه الأرض.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

من وضع صورة مركبة للشخصية الإرهابية إلى الدروب: الطريق إلى التجنيد

جون هورغان

رجال إيرانيون يسجلون استعدادهم لأن يكونوا "شهداء" انتحاريين في تجمع تجنيد في طهران في شهر نيسان/إبريل، ٢٠٠٦.
حسن ساربخشيان/ AP Images©

جون هورغان هو زميل الأبحاث الرئيسي في مركز دراسة الإرهاب والعنف السياسي، ومحاضر في العلاقات الدولية بجامعة سانت آندروز باسكتلندا. والدكتور هورغان عالم نفس سياسي إيرلندي، ويتركز أحدث أبحاثه حول الانضمام إلى الجماعات الإرهابية والخروج منها. وسينشر كتابه بعنوان "الابتعاد عن الإرهاب: روايات عن الانسحاب من الحركات المتطرفة والمتشددة" في العام ٢٠٠٨.

بعد مرور أقل من سنة على وقوع أربعة تفجيرات انتحارية منسقة استهدفت مترو الأنفاق في لندن في ٧ تموز/يوليو، ٢٠٠٥، خلص تقرير لمجلس العموم البريطاني طال انتظاره بتلهف حول أحداث ذلك اليوم إلى القول: "ما نعرفه عن المتطرفين السابقين في المملكة المتحدة يظهر عدم وجود سمات مشتركة نمطية ثابتة للمساعدة في تحديد من يمكن أن يكون معرّضا لأن يصبح متطرفا. والأشخاص الأربعة المعنيون هم ثلاثة من المواطنين البريطانيين من الجيل الثاني الذين يتحدر آباؤهم من أصول باكستانية وواحد يتحدر أبواه من جامايكا. كامل بورغاس الذي أدين في مؤامرة ريسين، فشل في الحصول على حق اللجوء السياسي في الجزائر، وريتشارد ريد الذي أخفق في تفجير الحذاء/القنبلة أمه إنجليزية وأبوه من جامايكا.

... وقد حصل البعض على مستوى جيد من التعليم، في حين حصل البعض على قدر أقل من التعليم. والبعض فقراء حقاً، في حين أن البعض الآخر أقل فقراً. والبعض اندمج جيدا على ما يبدو في المملكة المتحدة، ولكن البعض الآخر لم يفعل ذلك. ومعظمهم عزاب، ولكن البعض متزوجون ولهم أولاد. والبعض من المتقيدين في الماضي بالقوانين، ولكن للآخرين تاريخاً في ارتكاب الجرائم البسيطة".

وقد انطوت جميع أجزاء هذا التقرير الجدير بالملاحظة على إحساس بالإحباط بسبب الفشل في التوصل إلى تحديد سمات مشتركة ثابتة بين شخصية الأفراد الذين تم تجنيدهم في حملة القاعدة العالمية للإرهاب والتخريب. ونفس هذا الإحباط واضح، في الحقيقة، في الكثير من دوائر وضع السياسات وتطبيق القانون. ورغم فشل البحاثة في التوصل إلى صورة مركبة صحيحة يمكن التعويل عليها للسمات المشتركة بين شخصيات الإرهابيين، فإن السعي إليها ما زال مستمرا.

تحليل السمات المشتركة الثابتة في شخصيات الإرهابيين

مع ذلك، ورغم الأدلة على أنه من غير المحتمل، منطقيا، أن يتم أبداً تركيب صورة لشخصية الإرهابي نتيجة تحليل السمات المشتركة الثابتة بين شخصيات الإرهابيين، فإن استمرار هذا البحث بدون توقف لا يثير الدهشة. وهناك بعض القضايا الواضحة والمفهومة التي تدفع المحاولات لوضع مثل هذا الصورة المركبة لشخصياتهم.

فمن ناحية، ترغمنا العواقب الدرامية الناجمة عن النشاطات الإرهابية الناجحة على مواجهة آثار سلوك يوعز، لمعظم الأشخاص العاديين، بوجود شذوذ أو نوع من المرض – "كيف يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك؟" هو أحد ردود الفعل المألوفة على التصرفات المروعة المرتبطة بالهجمات الإرهابية.

وهناك قضية ثانية تدفع جهود التوصل إلى صورة مركبة لشخصية الإرهابي ترتكز إلى تحليل السمات المشتركة الثابتة بينهم، هي سؤال أساسي آخر: بما أن هناك أشخاصا كثيرين جداً معرضين للظروف التي يفترض أنها تولد الإرهاب (أو "الأسباب الجذرية")، وللعوامل المحركة والمحفزة – لكل من التعبئة الدينية والسياسية – التي قد تؤدي إلى الانخراط في نشاط عنيف، فلماذا لا يُجند إلا عدد ضئيل جدا من الناس؟

هذا سؤال تصعب الإجابة عليه، ولا ريب في أن أي جواب نقدمه لن يكون مقنعاً بالنسبة للجميع. وهناك إغراء أثر على نحو كبير على طبيعة واتجاه بعض الأبحاث السابقة (خاصة التي قام بها علماء النفس)، هو افتراض وجود بعض سمات الخصوصية المميزة لدى أعضاء مجموعة إرهابية محددة – من حيث ما يجعلهم "متشابهين" – بالإضافة إلى ما يفترض أنه يجعلهم "مختلفين" عن بقيتنا (أو على الأقل عن الأشخاص الذين لا ينخرطون في الإرهاب).

وقد كان عالم النفس وخبير الإرهاب آريل ميراري مصيباً في مجادلته بأنه من الأكثر دقة القول بأنه "لم يتم العثور حتى الآن على تركيبة لشخصية الإرهابي قائمة على تحليل السمات المشتركة الثابتة بين شخصيات الإرهابيين" بدلا من القول بأنه "لا توجد صورة مركبة لشخصية الإرهابي تتضمن السمات المشتركة الثابتة في شخصياتهم." إلا أنني أجادل بقوة بأن هناك عدة أخطار حقيقية ترتبط بالجهود المستمرة للتوصل إلى مثل هذه الصورة المركبة للشخصية، خاصة فيما يتعلق بفهم التجنيد للإرهاب.

فعند افتراض وجود صورة مركبة للشخصية تتضمن السمات المشتركة، نميل إلى إغفال عدة صفات أساسية مميزة مرتبطة بتطور المرء إلى إرهابي. وتشتمل هذه الصفات المميزة، ولكنها لا تقتصر، على ما يلي:

- الطبيعة التدرجية لسلسلة العمليات المتصلة بالتهيئة للمشاركة في النشاطات الإرهابية.
- شعور بخصائص داعمة مرتبطة بالتجنيد (مثلا عوامل "الجذب" أو المغريات التي تجذب الناس إما للانخراط في الإرهاب بصورة عامة، أو المغريات الإيجابية التي تستخدم لتهيئة الأعضاء الجدد المحتملين).
- الشعور بالانتقال من دور إلى آخر (مثلا الانتقال من نشاط هامشي كالمشاركة في المظاهرات والمسيرات الاحتجاجية إلى سلوك غير قانوني مركز – أي بمعنى آخر الانتقال من دور لآخر).
- شعور بأهمية خصائص الدور (مثلا ما هي العوامل التي تغري المرء بأن يصبح قناصاً بدل أن يصبح مفجرا انتحاريا، وكيف تصبح "خصائص الأدوار" هذه ظاهرة للناظر إلى الأمر أو للعضو الجديد المحتمل؟).

عندما نفترض وجود سمات ثابتة لدى جميع الإرهابيين (أحد ملامح صورة الشخصية المركبة) فإننا نصبح عاجزين عن رؤية العوامل والقوى التي تشكل وتدعم نشوء وتطور الإرهابي. ومن العواقب الأخرى أننا نحجب الأساس الذي قد تتطور عنه استراتيجية مقاومة للإرهاب عملية على نحو أكبر لمنع الانخراط أو ضبط عدد الأشخاص الذين ينخرطون في بداية الأمر في الإرهاب.

إلا أن الأشخاص الذين يعملون في مجال مكافحة الإرهاب يعتمدون عادة على الصورة المركبة للشخصية. وبعد أن ألقيت محاضرة في الآونة الأخيرة حول الصور المركبة على أساس السمات المشتركة للشخصية الإرهابية أمام مسؤولين عن مكافحة الإرهاب، اعترض مسؤول كبير على ما ذكرته قائلاً "إن الصورة المركبة لشخصية الإرهابي مفيدة. إنها مفيدة طبعا. والسبب ... هو أن المفجر الانتحاري العادي لن يكون رجلا أبيض في منتصف العمر أبا لثلاثة أطفال". وقد صدر هذا التعليق في المملكة المتحدة، حيث يمكن بالطبع فهم هذا الرد لأننا لم نر مفجرا انتحاريا من هذا النوع هناك حتى الآن.

ليس المقصود هنا دعم المبالغة القائلة بأن كل شيء ممكن وتشويه حقيقة التهديد، وإنما الوعي بأن الافتراضات التي تشكل كيفية تفكيرنا بالإرهابي تستند بصورة متزايدة إلى مثال تكهنات حسابات التأمين حول عينة صغيرة من الأفراد لا تتسم بأهمية إحصائية لصغرها. ولا ريب أن أخطار التعميم الشامل واضحة.

إلا أن إبراز هذا القصور لا يجيب هو أيضاً عن السؤال الحاسم: لماذا يصبح شخص منخرطا في الإرهاب ولا يفعل شخص آخر ذلك؟ وما من شك في أنه من المستحيل الإجابة عن هذا السؤال بصورة مرضية، ولكن لدينا بعد النقاط المفيدة التي تساعد في بدء الإجابة. وقد حددت في كتاب حديث مجموعة لما وصفته بالعوامل المسبقة التي تجعل المرء مهيئاً للانخراط في الإرهاب. وتشتمل هذه العوامل على ما يلي، دون التأكيد على ترتيبها:

- التجارب الشخصية في مجال الاضطهاد (الحقيقية أو المتصورة).
- توقعات تتعلق بالانخراط (مثلا المغريات كالإثارة والرسالة وإحساس بأن لحياة المرء

هدفا – المرتبطة بالانخراط في أي مجموعة "مطلعة على بواطن الأمور" وفي أدوارها المختلفة).

- الارتباط العاطفي الوثيق بقضية، تكون متعلقة عادة بمجتمع مضطهد.
- المشاركة في النشاطات والتأهل للانضمام إلى المجموعة عن طريق الأصدقاء أو الأسرة، أو النشوء في بيئة معينة.
- فرصة للتعبير عن رغبة بالانضمام والخطوات المتخذة نحو الانخراط.
- مدخل أو وسيلة إلى الوصول إلى الجماعة ذات الصلة.

لا بد من التأكيد على أن أياً من هذه العوامل لن يساعد بمفرده في توضيح سبب تحول الناس إلى إرهابيين، إلا أنها تقدم عند أخذها مجتمعة إطارا عاما قويا لفهم سبب انخراط شخص ما بالإرهاب وعدم إقدام شخص آخر على ذلك.

دروب الإرهاب

قد يكون من المفيد، كي نتجاوز المناقشات العقيمة وغير المفيدة حول صورة الشخصية الإرهابية المركبة على أساس السمات المشتركة، التمعن في ما ينطوي عليه الانخراط في الإرهاب لكي نبدأ التحرك نحو ما أدفع بأنها طرق أكثر فائدة في وضع مبادرات مكافحة إرهاب مبنية على سعة اطلاع نفسانية.

وفي مقدمة هذه الأمور أن ما يجسد الخصائص الأساسية لواقع الانخراط في الإرهاب اليوم هو تعقيده: يبدو أن الانخراط في الإرهاب ينطوي على – ويسفر عن – أشياء مختلفة جداً لأشخاص مختلفين جدا. كما يبدو أن هذا ينطبق على وضع مجموعة واحدة بمفردها، وأيضا عبر طيف الحركات الإرهابية. وحتى أصغر الحركات الإرهابية تختلف كثيراً عن التمييز المفرط التبسيط بين الزعماء والأتباع، وتشتمل على طائفة من الأدوار والوظائف التي يكلف المجندون الجدد بها أو يشجعون على الانتقال إليها، استنادا إلى مجموعة كبيرة من العوامل. كما أن تبني هذه الأدوار والاحتفاظ بها ليس أمراً قائماً بذاته أو ثابتا. وهناك في كثير من الأحيان تنقل بين وضمن الأدوار، من مجالات غير قانونية (كالاشتراك في نشاط عنيف) إلى مجالات متوسطة أو بين بين (دعم الاشتراك في نشاط عنيف) إلى مجالات قانونية (كالاحتجاج السلمي).

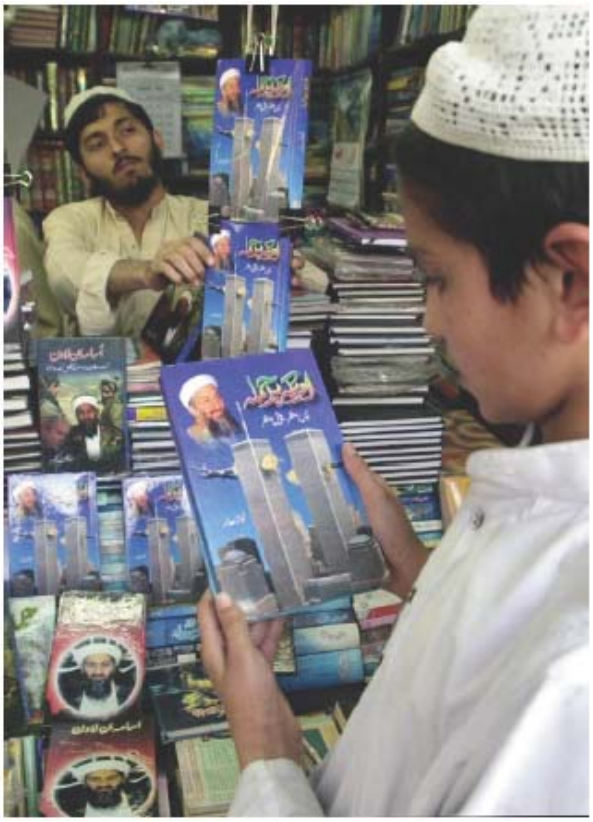

النشوء في بيئة يمجد فيها الإرهاب ويرتبط بالإثارة عامل يجعل المرء معرضاً للانخراط في نشاط إرهابي.
شكيل عادل/ AP Images©

ومع أن الكثير من النشاطات التي تشترك فيها الحركات الإرهابية ليست في الواقع غير قانونية في حد ذاتها (وليس من الممكن شملها بطريقة ذات معنى ضمن تصنيف "الإرهاب"، بل ربما بدل ذلك ضمن تصنيف "التخريب")، فإن العمليات الإرهابية لا يمكن أن توجد من دونها.

وممارسة النشاط المستخدم للعنف هي ، في الغالب الأعم، ما نربطه عادة بالإرهاب. إلا أن واقع الحركات الإرهابية في هذه الأيام هو أن هذه الأدوار والوظائف العلنية جدا تميل إلى أن تمثل مجرد قمة جبل الجليد للنشاط. ومن يدعم تنفيذ الهجوم المستخدم للعنف هم الأشخاص الذين يعينون على النشاط ويمهدون له، الأشخاص الذين يؤوون الإرهابي أو يقدمون أنواعا أخرى من الدعم، والأشخاص الذين يجمعون الأموال ويقومون بالإعلام والدعاية وإثارة الاهتمام ويقدمون المعلومات الاستخباراتية، وما إلى ذلك.

فالشخص الذين نفكّر فيه "كإرهابي" يقوم إذن بوظيفة واحدة، ولو أنها الأكثر إثارة من حيث العواقب المباشرة، من وظائف متعددة في الحركة.

ومن عواقب تعقيد هذه القضايا وجود حاجة واضحة للتوصل إلى مبادرات مكافحة إرهاب أكثر ابتكارا ومرونة. وإذا ما قمنا بالاستمرار في التوسع في متابعة امتداد الوظائف المرتبطة بالحركات الإرهابية، سنرى أننا كلما تحركنا بعيدا عن العنف

المرتبط بالإرهاب، كلما تحركنا نحو تحديد الوظائف التي يصبح تصنيفها أكثر صعوبة كإرهاب أو حتى كشيء غير قانوني. وبعبارة أخرى، إن الحركات الإرهابية تتألف من أكثر بكثير من "الإرهاب".

سبل لمكافحة الإرهاب

إن فهمنا ما زال هزيلاً لكيفية انتقال الناس بين وضمن الأدوار (أي التنقل من دور إلى آخر والترقي، على التوالي). ويمكننا القول بصورة عامة إن الانخراط في الإرهاب عملية معقدة، تشتمل على مراحل متميزة يمكن تلخيصها بأنها انخراط الإرهابي الفرد في عملية تدرجية من التكيف والذوبان في المجموعة التي تستوعبه عبر مراحل يمر بها تدريجيا.

هناك شعور بالحركة المستمرة إلى، وعبر، تولي أدوار ووظائف مختلفة، وأحيانا إلى التوقف عنها. ورغم أن التوقيت سيتوقف دائما على مجموعة من العوامل، وأنه يبدو أن بعض الأشخاص ينخرطون بسرعة أكبر من غيرهم، فإن الصفة الثابتة الموجودة في جميع الحركات الإرهابية هي هذا الإحساس التدريجي بالتقدم. والاعتقاد بأن هناك لحظة تجلّ توضح اتخاذ قرار ما عن وعي مفترض بأن يصبح المرء إرهابيا هو اعتقاد ساذج ومضلل، والعنصر الحاسم في الأمر هو أنه لا تدعم هذا الاعتقاد أي أدلة علمية مبنية على الملاحظة والاختبار.

كما أن عملية التحرك هذه تستند إلى خصائص مؤيدة في البداية: مع أن الإرهاب سيكون دائما نتاج زمانه ومكانه الخاصين به، وأن دوافع متعددة ستتواجد معاً لدى الأعضاء حتى في الحركة نفسها، فإن القاسم المشترك الأكثر وضوحا الذي يؤثر في اعتناق الأشخاص لتطرفهم – على أي مستوى – هو إحساس بتوقعات إيجابية.

إننا لا نمارس سلوكا ما لم نعتقد بأنه سيعود علينا بفائدة واضحة. وينطبق الشيء نفسه على سلوك الإرهابي. وقد يتجلى ذلك أحياناً على شكل توقعات خاصة بتحقيق إحساس بالمكانة والسلطة والتقبل (من قبل الآخرين) والرسالة، وما إلى ذلك. وطالما ظل الالتزام والتفاني في تهيئة وضع الفرد أكثر فأكثر في الحركة إيجابيا بالنسبة لذلك الفرد، فإن ذلك يؤدي في نهاية المطاف إلى تشكيل هوية جديدة، أو هوية معززة بشكل فعال لذلك الفرد.

وإن شئنا أن نفهم ماهية"العقلية الإرهابية،" إن كان هناك مثل ذلك الأمر، فلعل الأفضل هو أن ينظر إليه كنتاج لما يلي:

- انتماء اجتماعي متزايد إلى أعضاء حركة إرهابية وما يرتبط بذلك من انخراط في نشاط غير قانوني.
- سلوك مركز، بصورة أكثر عموماً، متزايد الصلة بسياق الحركة الإرهابية.

وكثيرا ما يعني ذلك من المنظورين الشخصي والاجتماعي أن المشاركة والانتماء الاجتماعي المتزايد إلى الإرهاب والأشخاص المرتبطين به يشهد ابتعاداً اجتماعيا *بعيدا عن* الأصدقاء والأسرة والحياة السابقة للشخص، الذين ليست لهم صلة وثيقة بالحياة الجديدة.

وهناك عدة نتائج يبدو أنها تنبثق عن التمييز بين هذه المراحل، وإحدى هذه النتائج هي أننا قد نتمكن من البدء في وضع مبادرات مختلفة تصاغ كل منها لمكافحة الإرهاب في مرحلة مختلفة، استنادا إلى ما نستطيع أن نتحقق من أنه النقطة التي تكون فعالية التدخل عندها على أكثر ما تكون عليه، سواء كان حيلولة دون الانخراط منذ البداية، أو تعطيلاً تاليًا للانخراط، أو تسهيلا في نهاية الأمر لفك الارتباط. وسيقودنا إدراك وجود نقاط التمييز هذه إلى إدراك احتمال وجود أنواع فريدة للتدخل يجب التوصل إليها، وفقاً للنقطة التي نقرر أنها الأفضل لتركيز عمليات تدخلنا عليها.

ورغم أن مرحلة فك الارتباط أو الانفصال عن الحركة الإرهابية تظل المرحلة التي نفهمها أقل من غيرها والتي يجري حولها أقل قدر من الأبحاث، فمن المفارقات أن أؤكد أن مبادرات مقاومة الإرهاب العملية – التي تهدف ليس فقط إلى تسهيل فك الارتباط أو الانفصال وإنما أيضاً إلى الحيلولة دون الانخراط منذ البداية – قد تصبح أكثر فعالية في هذه المرحلة بالذات.

أهمية الفرد

في حين أن الإرهاب هو في نهاية المطاف نشاط جماعي، إلا أن تلك الجماعة ستتألف دائما من أفراد يلعب كل منهم دورا، كما هو موضح أعلاه. ومع أن برامج مكافحة الإرهاب لا تميل بصورة عامة إلى التركيز على الأفراد، فإن فهم كيفية تحول الفرد إلى فرد متطرف والخصائص الاجتماعية والنفسية المرتبطة بذلك، هو بالذات ما يمكن أن يعطينا فكرة عن أنواع القوى المحركة التي يجب فهمها من أجل تطوير طرق لتشجيع فك الارتباط.

ومع أن الإرهاب قد يسفر عن عواقب مهمة واسعة النطاق، إلا أنه يبقى، في جوهره، نشاطا منخفض المستوى ومنخفض الحجم وغير متناسب (من حيث المستوى والحجم والعواقب) يرتكبه أفراد. ويجب ألا تردعنا أهمية الإرهاب وتأثيره واسعا النطاق عن القيام بعمليات تحليل دقيقة للإرهابيين وللأحداث الإرهابية على حد سواء.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

مسرح وسائل الإعلام

غابريل وايمان

الدكتور غابريل وايمان هو أستاذ اتصالات في جامعة حيفا، بإسرائيل، وفي كلية الدراسات الدولية بالجامعة الأميركية في واشنطن العاصمة. وتستند ورقته إلى دراسته "العناصر النفسية في الإرهاب المنجز بواسطة وسائل الإعلام" التي ستنشر قريباً وقد أجراها بدعم من معهد السلام الأميركي حيث يعمل كزميل في الأبحاث.

القاعدة تذيع عبر وسيلتها الإعلامية، صوت الخلافة.
©AP Images

حين يقول المرء "الإرهاب" في مجتمع ديمقراطي، فهو يقول أيضا "وسائل الإعلام". فالإرهاب بطبيعته الأساسية سلاح نفسي يعتمد على تبليغ تهديد إلى مجتمع أوسع. وهذا هو، أساسا، سبب وجود علاقة تكافلية بين الإرهاب ووسائل الإعلام.

- بول ويلكينسون

العناصر النفسية في الإرهاب

استلزم الإرهاب منذ أيامه الأولى جانبا نفسيا جماهيريا: تأتي كلمة "إرهاب" (Terror) باللغة الإنجليزية من كلمة باللغة اللاتينية تعني "تخيف أو ترعب أو ترهب". وخلال الثورة الفرنسية في العام ١٧٩٣ أسفر حكم الإرهاب عن إعدام ١٧ ألف شخص نفذت عمليات إعدامهم جميعاً أمام جماهير غفيرة ورافقتها حملة دعاية إعلامية مثيرة، مما أدى إلى انتشار الخوف المقصود بين أي مجموعة من المواطنين قد تملك الجسارة للاعتراض على ما يجري.

ويمكن فيهم الإرهاب الحديث باستخدام نفس لغة متطلبات إنتاج أي عرض مسرحي: اهتمام دقيق بإعداد النص، واختيار الممثلين وإعداد المناظر على خشبة المسرح وما يستعان به في الإخراج (كالملابس والأثاث) وتمثيل الأدوار والإدارة المسرحية المتواصلة. وكما هو الحال بالنسبة للمسرحيات وعروض الباليه التي تفرض نفسها على المشاهد، يتطلب توجيه وسائل الإعلام نحو النشاط الإرهابي اهتماما دقيقا بالتفاصيل لكي يكون فعالا. والضحية هو، في نهاية الأمر، ليس إلا "الجلد على طبلة تقرع لتحقيق تأثير محسوب على جمهور أوسع".

وقد ضارعت نموَ الفرص المدفوعة بالتكنولوجيا جهودُ الإرهابيين أنفسهم لصقل مهاراتهم الإعلامية. وكما قال أحد الإرهابيين الذين خططوا للهجوم على الرياضيين الإسرائيليين خلال الألعاب الأولمبية في ميونيخ في العام ١٩٧٢ في شهادته:

أدركنا أن الرياضة هي الدين الحديث للعالم الغربي. وكنا نعلم أن الشعب في إنجلترا وأميركا سيحول أجهزته التلفزيونية من أي برنامج عن محنة الفلسطينيين إذا كان هناك حدث رياضي على قناة أخرى. لذلك قررنا استخدام مبارياتهم الأولمبية، أقدس طقوس هذا الدين، لجذب اهتمام العالم إلينا. وقدمنا ضحايا بشرية لآلهتكم، الرياضة والتلفزيون. وقد استجابوا لصلواتنا.

وقد كان أقوى وأعنف وأفضل العروض تصميماً وإخراجاً على "مسرح الإرهاب" الحديث هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام بحث أسامة بن لادن عملية مهاجمة البرجين التوأمين، مشيرا إلى الإرهابيين الانتحاريين على أنهم "طلائع الإسلام" ومنوها بأن "هؤلاء الشباب ألقوا بالأفعال، في نيويورك وواشنطن، خطابات بزّت كل خطاب آخر ألقي في أي مكان آخر في العالم. وهذه

الخطابات يفهمها العرب وغير العرب أيضاً، وحتى الصينيون". إلا أن أهم جمهور استهدفه بن لادن لم يكن الشعب الأميركي، بل سكان الدول الإسلامية. ورفعه الاهتمام الذي منحته إياه وسائل الإعلام والزعماء السياسيون إلى مرتبة شخصية قيادية عالمية.

حاججت بريجيت ناكوس في دراستها في العام ٢٠٠٣ بأن بن لادن كشف عن أنه اعتبر الإرهاب، أولا وقبل كل شيء، وسيلة لإرسال الرسائل – "خطابات" على حد تعبيره – وخلص إلى أن الأميركيين، بشكل خاص، قد سمعوا واستجابوا بالتأثر النفسي الملائم للرسالة المقصودة بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وقال "ها هي أميركا، مليئة بالخوف من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق. الحمد لله على ذلك".

صورة من شريط معروض على موقع إلكتروني إسلامي في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤، يهدد فيها الإرهابيون بقطع رأس الرهينة الغربية المخطوفة

وتجادل ناكوس بأن الإرهابيين، بتوجيه ضربة قوية لأميركا، سيطروا على الأجندة العالمية، من خلال وسائل الإعلام، وغيروا موضوع النقاش من الحزن على آلاف القتلى إلى تقصّ عالمي لمظالمهم. ولعل المرتكبين حققوا أهم أهدافهم الإعلامية: الترويج الإعلامي لأنفسهم، ولقضاياهم ولمظالمهم ولمطالبهم.

وكانت الأهداف التي اختيرت لذلك الحدث رموزا للثراء والتراث الأميركيين وللقوة الأميركية. وطبقا لكتيب استخدم في معسكرات تدريب القاعدة، كانت التغطية الإعلامية اعتبارا بالغ الأهمية، وربما ما زالت كذلك. ولذا نُصح الجهاديون باستهداف "معالم لها قيمة عاطفية،" كتمثال الحرية بنيويورك، وساعة بيغ بين بلندن، وبرج إيفل بباريس لأن تدميرها "سيولّد تغطية إعلامية مكثفة".

وقد أدخل التقدم في تكنولوجيا الاتصالات أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في السجلات بوصفه العرض الإرهابي الذي شاهده أضخم عدد من الناس عبر التاريخ.

الإخراج الإرهابي

كان البرازيلي كارلوس ماريغيلا واحدا من أهم المنظرين حول الإرهاب الحديث، وأصبح مؤلفه "الكتيب الصغير عن رجل العصابات الحضري" مرجعا عن الإرهاب العالمي. وقد كتب:

من الممكن أن يوفر اختطاف أشخاص معروفين بنشاطاتهم الفنية والرياضية، أو غيرها من النشاطات، ممن لم يعبروا عن أي آراء سياسي،ة نوعاً من الدعاية التي تصب في صالح الثوريين ... إن وسائل الإعلام الحديثة، من خلال مجرد إعلانها عما يفعله الثوريون، هي أدوات هامة للدعاية. وحرب الأعصاب، أو الحرب النفسية، هي أسلوب قتالي يستند إلى الاستخدام المباشر أو غير المباشر لوسائل الإعلام. ...والهجوم على البنوك ونصب الكمائن والفرار من الجيش وتحويل الأسلحة وإنقاذ السجناء وعمليات الإعدام والاختطاف والتخريب والإرهاب وحرب الأعصاب جميعها حالات تثبت ذلك. ومن الممكن أن تكون عمليات تحويل مسار الطائرات أثناء طيرانها ومهاجمة السفن والقطارات والاستيلاء عليها من قبل رجال العصابات عمليات الهدف الوحيد منها هو التأثير الدعائي.

وقد حمل ظهور الإرهاب المتوجه إلى وسائل الإعلام عدداً من البحاثة على إعادة صياغة مفاهيم دراساتهم: "كعمل رمزي، يمكن تحليل الإرهاب بشكل مشابه جداً لوسائل الاتصال الأخرى، المؤلفة من أربعة عناصر: جهاز الإرسال (الإرهابي)، والمتلقي المقصود (الهدف)، والرسالة (التفجير، الكمين)، والتغذية الاسترجاعية (رد فعل الجمهور المستهدف)".

واقترح رالف داولنغ تطبيق مفهوم "نوع التأثير بواسطة اللغة" وحجته في ذلك أن "الإرهابيين يمارسون أشكالاً مكررة من استخدام اللغة المؤثرة الهادفة إلى الإقناع (شفوياً وكتابياً وتصويريا) مما يرغم وسائل الإعلام على توفير الوصول إليها الذي بدونه لا يستطيع الإرهاب تحقيق أهدافه".

عضو في مجموعة الكوماندوز العربية التي احتجزت وقتلت ١١ عضوا من الفريق الأولمبي الإسرائيلي خلال مباريات الألعاب الأولمبية الصيفية في ميونيخ بألمانيا في العام ١٩٧٢، يقف على شرفة مقر القرية الأولمبية حيث كان يُحتجز الرهائن.
كيرت شترومبف/ AP Images©

وأصبحت بعض النشاطات الإرهابية ما وصفه دجيه. بوير بيل "استعراضات إرهابية مثيرة" إلى حد يجعل أفضل طريقة لتحليلها هي اعتبارها "حدثاً إعلاميا." فهجمات حزب الله على الأهداف الإسرائيلية، مثلا، تسجل دائما على أشرطة، مما قاد بعض المحللين إلى القول بأن كل وحدة إرهابية تتألف من أربعة أعضاء على الأقل: المرتكب والمصور وفني الصوت والمخرج.

ومن الواضح أن الإرهابيين يخططون أعمالهم مع أخذ وسائل الإعلام كاعتبار رئيسي. وهم يختارون الأهداف والموقع والتوقيت طبقا لما تفضله وسائل الإعلام، محاولين تحقيق المعايير المشترطة من حيث كون الحدث يستحق النقل كخبر والجداول الزمنية لوسائل الإعلام ومواعيدها النهائية. ويلفق الإرهابيون ويعدّون وسائل بصرية – كالأفلام ولقطات الفيديو للهجمات و"الاعترافات" المنتزعة من الرهائن، والمقابلات المسجلة وبيانات الولاء من مرتكبي العنف – في نفس الوقت الذي يقدمون فيه بيانات صحفية وأخبارا مسجلة على أشرطة الفيديو، حرفية المستوى.

ويمد الإرهابيون المعاصرون وسائل الإعلام، بصورة مباشرة وغير مباشرة أيضا، بالدعاية المموهة على أنها مواد إخبارية. كما أنهم يراقبون التغطية الإعلامية ويفحصون عن كثب تقارير الصحفيين المختلفين ومنظماتهم الإعلامية. ويتخذ الضغط الذي يمارسه الإرهابيون على الصحفيين أشكالا عديدة – من الاستضافة العلنية الودية إلى التهديدات المباشرة، وحتى جرائم القتل التي تخوف الآخرين.

وأخيرا، تدير المنظمات الإرهابية وسائل إعلامها الخاصة بها – من القنوات التلفزيونية (المنار لحزب الله وصوت الخلافة للقاعدة) ووكالات الأنباء والصحف والمجلات والمحطات الإذاعية وأشرطة الفيديو والكاسيتات حتى، في الآونة الأخيرة، المواقع الإلكترونية على الإنترنت.

الحلبة الجديدة: الإرهاب على الإنترنت

يستفيد إرهابيو عصر ما بعد الحداثة من ثمار العولمة والتكنولوجيا الحديثة لتخطيط وتنسيق وتنفيذ حملاتهم المميتة.

وقد أصبح هؤلاء الإرهابيون، الذين لم يعودوا مقيدين بمنطقة معينة، أو معتمدين سياسيا أو ماليا على دولة معينة، يعتمدون على قدرات اتصالات متقدمة، بما في ذلك الإنترنت، لدفع عجلة أجندتهم المهلكة. ففي العام ١٩٩٨، كان لدى أقل من نصف المنظمات المصنفة من قبل وزارة الخارجية الأميركية كمنظمات إرهابية مواقع إلكترونية. وبحلول نهاية العام ١٩٩٩ كانت جميع هذه الجماعات الإرهابية تقريبا قد أوجدت لنفسها حضورا على الإنترنت. وقد أصبح اليوم لجميع الجماعات الإرهابية النشيطة حضور واحد على الأقل على الإنترنت، ويشير رصدنا للفترة الممتدة من العام ١٩٩٨ إلى العام ٢٠٠٧ إلى وجود أكثر من ٥ آلاف من المواقع والمنابر وغرف المحادثة الإلكترونية التابعة للإرهابيين.

والإرهاب والإنترنت مرتبطان بطريقتين. أولا، أصبحت الإنترنت منبرا للجماعات والأفراد لنشر رسائل الكراهية والعنف وللاتصال ببعضهم بعضا وبمؤيديهم والمتعاطفين معهم، فيما يشنون حربا نفسية. ثانيا، حاول الأفراد والجماعات مهاجمة شبكات الكمبيوتر فيما أصبح يعرف بالإرهاب الإلكتروني (أو السبرياني) أو الحرب الإلكترونية. إلا أن الإرهابيين في هذه المرحلة يستخدمون ويستفيدون من الإنترنت أكثر مما يهاجمونها.

والاتصال عبر الكمبيوتر مثالي بالنسبة للإرهابيين: فهو لامركزي، ولا يمكن إخضاعه للسيطرة أو القيود، وغير مراقب، ويتيح حرية الوصول لكل من يريده. وتعتبر الشبكات الإرهابية الحديثة المألوفة، المكونة من خلايا غير محكمة الترابط وشُعب وجماعات فرعية، الإنترنت مثالية وأساسية للاتصال بين أعضاء المجموعة الواحدة وبين المجموعات المختلفة.

إلا أن المواقع الإلكترونية ليست سوى واحدة من خدمات الإنترنت التي سطا عليها الإرهابيون. فهناك تسهيلات عديدة أخرى كالبريد الإلكتروني وغرف المحادثة والمجموعات الإلكترونية والمنابر وألواح الرسائل.

ويستخدم الكثير من هذه المواقع الإلكترونية لشن الحملات النفسية ضد الدول العدوة وقواتها المسلحة. فهي تعرض أفلاما مرعبة للرهائن والأسرى أثناء إعدامهم (وكثيراً ما يكون ذلك من خلال طريقة قطع الرؤوس البدائية)، ولاغتيال العسكريين في الميدان على يد القناصة أو إسقاط طائراتهم بالقذائف المحمولة على الأكتاف أو نسف عرباتهم باستخدام القنابل المخفية على جانب الطرق أو على يد مفجرين انتحاريين. وتحاول الرسائل، الشفهية والمصورة، تثبيط عزيمة العدو وتخويفه أو خلق شعور بالذنب والشك والانشقاق الداخلي، في نفس الوقت الذي تبلغ فيه رسالة تهديد إلى الحكومات المختلفة ومواطنيها. وهم يقولون "لا يهمنا من نقتل، وليس بينكم من يمكن حمايته". وهم يحرزون قوتهم من رد الفعل على الخوف.

لغة الدعاية الإرهابية

من العناصر المألوفة المشتركة بين المواقع الإلكترونية الإرهابية التبرير الذي يقدم لاستخدام العنف. ومن النظريات المفيدة الموجهة لهذا التحليل نظرية "فك الارتباط أو الفصل الأخلاقي" لألبيرت باندورا، ولو أنها لم توضع خصيصاً للإرهابيين، الذين يحاولون كالمجرمين، فك ارتباطهم بـ، أو النأي بأنفسهم عن، الاستخدام المروع للعنف، بالوسائل التالية:

- **تنحية المسؤولية** – يشتمل هذا على تحريف العلاقة بين أعمال الشخص ونتائج تلك الأعمال، و/أو لوم الضحية أو الظروف على أعمال العنف وقتل الأبرياء.

- **تمييع المسؤولية** – يتم ذلك بتقسيم الواجبات، بحيث يكون كل عمل مفرد غير مؤذ نسبياً بحد ذاته، ولكن المجموع الكلي مؤذ. وقد تستخدم القرارات الجماعية لتمييع المسؤولية الفردية عن عمل ما وتوزيعها على أفراد المجموعة.

- **تجريد الأهداف من إنسانيتها** – يكون ارتكاب العنف ضد الأبرياء أسهل إذا لم يتم تصورهم كبشر وأشخاص. ويمكن للمرء أن يقلل من الوحشية التي فُرضت على الآخرين بالتركيز، عوضا عن ذلك، على الطبيعة غير الشخصية للهجمات والمعنى الرمزي للأهداف، وبتسمية الضحايا بأسماء غير بشرية والنظر إليهم على أنهم لا يرقون إلى مستوى البشر – حشرات مؤذية، كلاب، وما إلى ذلك. ويحط أسامة بن لادن، على سبيل المثال، من منزلة الأميركيين "كشعب حقير" يرتكب أعمالا "لا ينحط إليها أكثر الحيوانات نهما."

- **اللغة الملطفة** – يتضمن ذلك جعل السلوك المؤذي محترما وتقليص المسؤولية الشخصية بالإشارة إليها بعبارات غير شخصية. فمثلا، تشير القاعدة دائما إلى أحداث ١١ أيلول/سبتمبر على أنها هجمات على رموز القوة والروح الاستهلاكية الأميركية، ولا تشير إطلاقاً إلى قتل نحو ٣ آلاف رجل وامرأة وطفل.

- **مقارنات مفيدة** – يتم حجب حقيقة السلوك المستهجن بمقارنته بسلوك آخر أكثر إيذاء. مرة أخرى، يقارن قتل الأشخاص الأبرياء، بمن في ذلك الأطفال، في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر إبان السلم بإلقاء الولايات المتحدة القنبلة الذرية على اليابان لإنهاء الحرب العالمية الثانية، التي قتل فيها مئات الآلاف، ولكن الولايات المتحدة لم تكن أبدا معتدية فيها، حتى بعد انتصارها.

- **تحريف تسلسل الأحداث وعزو اللوم** – تجاهل الحقائق أو تحريف عواقب عمل عنف على المواطنين الآخرين بالتأكيد على أن الهجوم الإرهابي لم يكن إلا عملا انتقاميا أو إجراء دفاعيا ضد استفزاز سابق للعدو يتيح للإرهابيين الحد من الشعور الفردي بالذنب. وينحى باللائمة على الضحية ويتهم آخرون بمسؤولية التسبب في الأعمال التي تستحق الشجب، كما يحدث عندما تقطع رؤوس المختطفين لأن حكوماتهم لم تلب مطالب الإرهابيين.

يُظهر تحليل لغة الخطاب على المواقع الإلكترونية الإرهابية أن أكثر أساليب فك الارتباط أو النأي بالنفس الأخلاقي شيوعاً هو "تنحية المسؤولية". ويقدم العنف بشكل مطرد على أنه عمل اضطراري للتعامل مع عدو جائر، وتعزى كل الجرائم والدمار الناتج عنه إلى الآخرين. وتتم إعادة ما يحققه الجهاديون المشاركون في الإرهاب، على سبيل المثال، إلى الله، في محاولة تهدف إلى تلميع صورة جرائم القتل والعنف، وفي نفس الوقت تمجيد "الاستشهاد."

ومن أساليب استخدام لغة الخطاب الهادف إلى التأثير التي يجدها المرء على صفحات المواقع الإلكترونية أيضاً محاولة إضفاء صبغة شرعية على أي أعضاء في أي جماعة معادية للسلطة بوصفهم محاربين في سبيل الحرية ووصم أي

شخص يعرب عن معارضته لهم بأنه "الإرهابي الحقيقي."

وأخيرا، فإن بعض مواقع المنظمات الإرهابية العنيفة تزخر بلغة اللاعنف، مع رسائل تدعي "حب السلام" وتأييد الحل الدبلوماسي. ويقدم هذا المزيج من الصور والحجج بهدف الوصول إلى جميع الجماهير المتوفرة.

التحدي القادم

يشكل ظهور الإرهاب الذي يتوجه إلى وسائل الإعلام ويأخذها بعين الاعتبار تحديا صعبا للمجتمعات الديمقراطية والقيم التحررية. ولا يقتصر التهديد على التلاعب بوسائل الإعلام والحرب النفسية، بل يشمل أيضاً خطر فرض أولئك الذين يحاولون محاربة الإرهاب قيوداً على حرية الصحافة.

كيف يتعين على المجتمعات الديمقراطية أن ترد على ذلك؟ هذه القضية حساسة ودقيقة للغاية، حيث أن معظم الخطاب الذي يتم نشره يعتبر ضمن حق حرية الرأي والتعبير الذي يكفله الدستور الأميركي أو القوانين المماثلة في المجتمعات الغربية الأخرى.

وتجلب التكنولوجيات الجديدة تحولا في النموذج المعتمد: فهي تمكن الأفراد مانحة إياهم قدرات معززة قياساً إلى ما تمنحه من تمكين وقدرات للدول أو المجتمعات من خلال الحصول بحرية على المعلومات والوصول إلى وسائل الإعلام. ويكمن جمال الإنترنت كوسيلة إعلامية جماهيرية في طبيعتها التحررية والحرة وغير الخاضعة للتنظيم الحكومي. فهل تشكل إساءة استعمالها بعضاً من الثمن الذي لا يمكن تجنب دفعه في سبيل الديمقراطية؟ ينبغي علينا أن نبحث عن حل وسط فاعل، يستبق تحول الأمر إلى أزمة، يحدّ من إساءة استعمالها من قبل الإرهابيين ويحافظ في نفس الوقت على الحريات الديمقراطية.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

دراسة حالة: ميثولوجيا الاستشهاد في العراق

محمد م. حافظ

قوات العمليات الخاصة العراقية تظهر قدرتها على قتال الإرهابيين في حفل تخرج حضره القائد الأميركي في العراق الجنرال ديفيد بيتريوس ورئيس الوزراء العراقي نوري المالكي.
واثق خزاعي/AP Images©

الدكتور محمد حافظ، أستاذ زائر في دائرة العلوم السياسية بجامعة ميزوري في كانزاس سيتي، صدر أحدث كتبه أخيراً "المفجرون الانتحاريون في العراق: إستراتيجية وعقيدة الاستشهاد"، عن المعهد الأميركي للسلام.

يواجه الجهاديون في العراق مشكلة صعبة في مجال تبليغ الرسالة والأفكار. إذ يتعين أن تحقق رسائلهم خمسة أهداف: أن تروق للمجندين الجدد المحتملين داخل وخارج العراق، وأن تبرر للمواطنين قتل المدنيين وأشقائهم المسلمين في هجمات المتمردين، وأن تلغي مفعول الوازع الذاتي الذي قد يمنع كوادرهم من قتل المدنيين في هجمات انتحارية، وأن تضفي صفة الشرعية على المنظمات التي تمارس العنف، وأن تتصدى لتصريحات السلطات في العراق وحول العالم الإسلامي وتحاول دحضها.

وهم يصيغون عددا من الحجج العملية والإيديولوجية والدينية لتحقيق هذه المهمات. ولكن، لتجنب إغراق جماهيرهم بالمعلومات والخطاب المعقد، يعمد الجهاديون إلى تبسيط رسالتهم من خلال الاعتماد على الروايات العاطفية التي ترسم صورة "الشهيد البطل".

ويقومون، عن طريق نشر أشرطة الفيديو القصيرة وسير المفجرين الانتحاريين على الإنترنت، بالعزف المكرر على نغمات الإذلال والتواطؤ والافتداء والتخليص لتحويل أعدائهم إلى شبه شياطين ولتحفيز كوادرهم على تقديم تضحيات "بطولية". ويبالغون في تصوير سوء المعاملة التي تتعرض لها النساء ويناشدون ذكورة الرجال لدفعهم إلى الشعور بالعار وحماية "أمهاتهم وشقيقاتهم". والمقصود من هذه العناصر المثيرة للعواطف هو حشد وتنشيط الدعم، ليس من دائرة ضيقة من الناشطين فحسب، وإنما أيضا من الجمهور المسلم الأوسع.

وتدور الروايات المهيمنة حول ثلاث أفكار رئيسية تقدم عادة تباعا، وكأنها تعرض مسرحية من ثلاثة فصول.

- يصور الفصل الأول إذلال ومعاناة المسلمين في العراق وفي غيره من

الأماكن، ويوحي بأن هناك مؤامرة يحيكها "الصليبيون" الغربيون لاستهداف المسلمين.

- الفصل الثاني مصمم لإظهار الأنظمة الإسلامية القائمة على أنها عاجزة ومتواطئة مع الغرب، مما يوحي بأنهم ليسوا قادة حقيقيين للعالم الإسلامي، وإنما خدم "لأسيادهم" الغربيين.
- يؤكد الفصل الثالث على حتمية انتصار المسلمين لأن "الورع والبطل" قد تقدما لافتداء أشقائهم المسلمين وتخليصهم من المعاناة والذل عن طريق الإيمان بالله والتضحية في ساحة المعركة وعدالة قضيتهم وأسس الفضيلة التي ترتكز إليها.

تقدم هذه الروايات الثلاث أحيانا منفصلة، ولكنها كثيرا ما تحاك معا للإيعاز بوجود مشكلة، القضية، وحل.

يناقش هذا المقال ميثولوجيا الاستشهاد في العراق معتمداً إلى حد كبير على المواد التي نشرها الجهاديون منذ بدء التمرد العراقي. ويشمل ذلك أشرطة الفيديو القصيرة والتسجيلات الصوتية وسير المفجرين الانتحاريين والمجلات الإلكترونية والصورة الثابتة المعروضة على الإنترنت. وقد تم التأكيد بشكل خاص على كيفية تصوير الجهاديين "الشهداء" الذين سقطوا في المعركة. ويحول الجهاديون الانتباه، عن طريق رفعهم المفجرين الانتحاريين إلى مرتبة أشخاص أخلاقيين مميزين يضحون بأنفسهم في سبيل الله والأمة الإسلامية، عن الفظائع التي يرتكبونها والضحايا الذين يلحقون بهم الأذى.

ولا بد من التوضيح منذ البداية أن تصوير المفجرين في أشرطة الفيديو القصيرة والسير هي دعاية إعلانية إلى أقصى الحدود. والهدف من التركيز على ميثولوجيا الاستشهاد هو إظهار كيفية سعي الجماعات إلى تحقيق عدة أهداف إعلامية عن طريق التلاعب بالروايات، لا الإيحاء بأن هذه الميثولوجيا تعكس الحقيقة.

السياق

لقد تجاوز عدد التفجيرات الانتحارية في العراق منذ العام ٢٠٠٣ مجمل عدد التفجيرات الانتحارية التي قامت بها حماس في إسرائيل وحزب الله في لبنان ونمور التاميل في سريلانكا مجتمعة. وقد استهدفت أغلبيتها الساحقة قوات الأمن العراقية والمدنيين الشيعة، لا قوات التحالف. والكثير من مرتكبي هذه التفجيرات الانتحارية، إن لم يكن معظمهم، هم متطوعون غير عراقيين. ومعظمهم ممن تربطهم صلات بشبكات جهادية مرتبطة "بجيل ثان" من الجهاديين الذين تدربوا في أفغانستان خلال فترة التسعينيات، ومن المتطرفين الفارين من بلادهم أو من البلاد المضيفة لتفادي القبض عليهم، والمجندين الجدد الحانقين بسبب معاناة المسلمين في العراق.

ويعتمد المتمردون العراقيون على مجموعة متنوعة من الأدوات التكتيكية، أكثرها فتكا المتفجرات محلية الصنع والسيارات المفخخة التي يقودها المفجرون الانتحاريون. إلا أن المتمردين يقومون أيضا بإرهاب "المتعاونين مع العدو" كالمترجمين والعمال اليدويين الذين توظفهم قوات التحالف، ويخربون محطات الكهرباء وخطوط أنابيب ومنشآت النفط والمياه، ومشاريع إعادة الإعمار، ويطلقون صواريخ محلية الصنع وقنابل الهاون على مواقع التحالف ويطلقون صواريخ أرض – جو على الطائرات وطائرات الهيلوكبتر، ويخطفون المواطنين المحليين والأجانب لاستبدالهم بفدية أو يعدمونهم، كما يخطفون أفراد قوات الأمن و"الجواسيس" لاستجوابهم وإعدامهم، وينفذون هجمات انتحارية باستخدام الأحزمة الناسفة.

جنود عراقيون يعاينون شاحنة مقفلة دمرت في هجوم وقع في بعقوبة بالعراق في شهر نيسان/إبريل ٢٠٠٧. قتل المفجر الانتحاري فتى عمره ١٢ سنة وجرح تسعة مدنيين آخرين.
أديم هادي/ AP Images©

كما يهاجم المتمردون المنظمات الدولية كالأمم المتحدة، والوكالات غير الحكومية كالصليب الأحمر، وممثلي الحكومات الأجنبية. وقد هاجموا السفارتين الأردنية والتركية وقتلوا دبلوماسيين جزائريين ومصريين وروسا.

أفراد أسرة ١٨ طفلا قتلوا في حادث تفجير سيارة مفخخة في حي شيعي ببغداد يجلسون مع صور أطفالهم خلال غداء تذكاري مع مسؤولين حكوميين عراقيين في شهر تموز/يوليو، ٢٠٠٥.
خالد محمد/ AP Images©

وهناك منطق استراتيجي لقيام المتمردين بمهاجمة الأهداف التي يستهدفونها. فالمقصود من العنف الممتد أن يخلق حالة انعدام أمن واسعة النطاق بين الشعب، وأن يولّد الاستقطاب الطائفي، ويؤدي إلى الانهيار الاقتصادي. وتجرد كل هذه النتائج النظام الجديد من شرعيته، وتتيح للمتمردين أن يصوروا أنفسهم على أنهم الحماة الوحيدون للسنّة، فيتمكنون بالتالي من كسب تأييدهم، وإيجاد دولة فاشلة لا تحتكر السلطة المركزية فيها استخدام القوة الإكراهية، مما يتيح للجهاديين، الذين يملكون أجندة تتجاوز العراق، إقامة قاعدة للعمليات والتجنيد والتدريب.

تبرير الهجمات الإرهابية

لقد أعلنت القاعدة في العراق مسؤوليتها عن ٣٠ بالمئة من الهجمات الإرهابية التي أُعلنت مسؤوليتها في العراق حتى شهر شباط/فبراير ٢٠٠٦. ومنذ شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦ ادعت دولة العراق الإسلامية، التي أقيمت كمنظمة واجهة لتنظيم القاعدة في العراق، مسؤوليتها عن جميع الهجمات الانتحارية هناك تقريبا.

ويبرر أبو دجانه الأنصاري، رئيس لواء البراء بن مالك التابع للقاعدة (فرقة التفجيرات الانتحارية)، الهجمات الانتحارية ضد "أقوى وأكثر الجيوش تقدماً في العصر الحديث" في مونتاج مكرس لأبو مصعب الزرقاوي، الزعيم الإرهابي الذي تم قتله. ويقول الأنصاري إن اللواء الانتحاري أُنشئ بناء على نصيحة سابقة لأسامة بن لادن لترهيب العدو واختراق دفاعاته لتثبيط عزيمة جنوده.

ولكن كيف يبررون قتل أشقائهم المسلمين؟ يجيب المتمردون في العراق، وليس فقط أولئك المرتبطون بالقاعدة، بأن قوات الأمن العراقية هي مجرد امتداد لقوات الاحتلال. كما تجادل القاعدة بأن الميليشيات الشيعية تقوم بمهاجمة وتعذيب وقتل السنّة، وتسيء معاملتهم وتقوم بإذلالهم عند نقاط التفتيش، وتعمل كجواسيس لقوات الاحتلال. ويكرّس الكثير من أشرطة الفيديو التي يعرضونها لهذا الموضوع. وفي تبريرهم لمهاجمة المسؤولين العراقيين الحاكمين، يجادل القوميون والمتمردون الجهاديون السلفيون، رغم عملية الانتخابات الديمقراطية، بأن هذه حكومة غير شرعية – بل ونظام مستقل بالاسم فقط وألعوبة في يد الأعداء – جاء إلى الحكم بمساعدة الأعداء ويحكم فقط لأن قوات التحالف تسمح له بذلك.

وتصوَر العلمانية والقومية والمذهب الشيعي على أنها أدوات مؤامرة خبيثة يقودها "الصليبيون" و"الصهاينة". وحجج الجهاديين هي: العلمانية، كما يقولون، تقسم العالم إلى مناطق دينية وأخرى غير دينية، وهو أمر مناقض للإسلام بوصفه انتهاكاً لسيادة الله على الحق والباطل، وعلى المسموح والممنوع. أما القومية فهي، بدورها، تعزز الانتماء الضيق في الهوية إلى اللغة والأرض والحدود، لا الانتماء الأوسع إلى أمة المؤمنين. والمذهب الشيعي، كما يدعي الجهاديون، يعلي شأن عقيدة هرطقية، وهم يقدمون الشيعة على أنهم أخطر أداة ضد المؤمنين الحقيقيين لأنهم "يبدون" كمسلمين، ولكنهم، في الواقع الجهادي، يكرهون أهل السنة ويتحينون الفرصة لخيانتهم.

وتستهدف هذه التبريرات العقائدية وسطا ضيقا من الجهاديين الملتزمين الذين قد يثيرون تساؤلات حول تكتيكات أو أهداف معينة للمتمردين، خاصة حين يتعلق الأمر بالهجمات التي تشن دون تمييز ضد الأشقاء المسلمين. وإلى الحد الذي توجّه فيه هذه الحجج المثيرة جداً للخلاف والجدل للجمهور المسلم الأوسع، ترفق عادة بصور مؤثرة وروايات مثيرة للعواطف تصدم ضمير المسلمين الأخلاقي، وتحول الشيعة وقوات الأمن العراقية إلى شبه شياطين، وتعمق الشعور بأن هناك خطراً محدقاً بالمسلمين في جميع أنحاء العالم.

ولا يعتمد المتمردون في العراق على قوة الإيديولوجية فقط لا غير لتعبئة الدعم للاستشهاد، بل يسعون أيضاً إلى تجاوز الفوارق الإيديولوجية والسياسية عن طريق موضوعات عاطفية وشخصية متأصلة في الثقافة والروح الجماعية المميزة للعرب والمسلمين. وتعتمد رواياتهم على ثلاثة موضوعات: الإذلال والعجز الناجم عن التواطؤ والخلاص عن طريق الإيمان والتضحية.

الإذلال

يقع موضوع الإذلال على أيدي القوى القاسية والمتعجرفة في صميم الروايات. وتبدأ صور الإذلال الجماعي عادة بعرض فيلم من المرحلة الأولى للحرب في العراق في العام ٢٠٠٣، يصور عدم التكافؤ في القوة ويعرض صوراً تثير المشاعر للمساجد المهدمة، والضحايا المضرجين بالدماء، وتفتيش المنازل. وتضفي هذه الصور، والأهم منها ومن كل شيء آخر، الصور من سجن أبو غريب، صبغة شخصية على المعاناة وتعمق الإحساس بالعجز والسخط الذي يشعر به كثير من المسلمين.

ويُجمَع عادة بين صور العراق وصور من نزاعات أخرى في المناطق الإسلامية، خاصة فلسطين. والقصد هو نقل رسالتين. الأولى هي أن معاناة وإذلال المسلمين حول العالم ليسا حدثين غير مترابطين، بل سلسلة من الاعتداءات من قبل "تحالف صليبي – صهيوني". وتضاعف هذه الرسالة الإحساس بالتهديد من أجل تبرير الإجراءات الاستثنائية التي تتخذ لمحاربة المؤامرة ضد الإسلام.

والرسالة الثانية هي أن العراق هو ساحة القتال الرئيسية لشن الحرب ضد أعداء الإسلام. وأن القتال في العراق هو، في الواقع، كالقتال في فلسطين والشيشان وكشمير والمملكة العربية السعودية وغيرها من الأماكن في العالم الإسلامي، إذ إنها تشكل جميعاً، بالنسبة للجهاديين، صراعاً واحداً لا حروباً منفصلة. ويمكن للمتمردين، من خلال وضع النزاع في هذا الإطار، دعوة الجهاديين في كل مكان إلى المجيء إلى العراق، مدّعين أن الانتصار هناك هو انتصار في كل أرض مسلمة.

كما يعتمد الجهاديون إلى حد كبير على موضوع إهانة شرف الأنثى ومعاناتها على أيدي الأجانب وقوات الأمن العراقية. وتزخر الرواية الجهادية بمشاهد النساء المصابات بالذعر فيما يقتحم الجنود منازلهن بحثا عن المتمردين، وأشرطة الفيديو التي تظهر تفتيش النساء بتحسس ثيابهن بحثاً عن سلاح مخبأ، والإشاعات عن اختطاف نساء أو اعتقالهن حيث يتم إذلالهن أو يتعرضن لما هو أسوأ من ذلك، وبقصص النساء اللواتي قامت القوات العراقية بتسليمهن بوصفهن رهائن تتم مبادلتهن بمتمردين مطلوبين. ومما لا شك فيه أن هذه الروايات تستثير مفاهيم الذكورة التي تسود الثقافة القبلية، التي يحتل فيها الشرف والعرض والمروءة أهمية حيوية. ويُحكم على مدى اتصاف المرء بهذه المفاهيم المتعلقة بالذكورة في كثير من الأحيان على أساس حمايته المتحمسة للنساء وسيطرته عليهن لكي لا يتعرضن لخطر الضلال في علاقاتهن مع الرجال، فيجلبن، بالتالي، العار على الأسرة أو القبيلة بأكملها.

العجز والتواطؤ

يرمي جزء من الرواية إلى إظهار "عجرفة" قوات التحالف وتواطؤ الحكومات الإسلامية المزعوم. وكثيرا ما تستخدم أشرطة فيديو المتمردين لقطة للرئيس جورج دبليو. بوش على ظهر حاملة طائرات أميركية يعلن النصر في العراق. ويتبع ذلك عادة بشريط للقوات الأميركية تسير بخطوات عسكرية في شوارع العراق أو تمشي عبر قصور صدام حسين. ويرى المرء أحياناً الصورة الشهيرة لجندي أميركي يرفع العلم الأميركي فوق تمثال صدام حسين في بغداد.

وتأتي بعد ذلك مباشرة صور تظهر الزعماء العرب – الملك عبد الله في المملكة العربية السعودية، والملك عبد الله الثاني في الأردن، والرئيس حسني مبارك في مصر، والقيادة العراقية لفترة ما بعد الغزو (إياد علاوي وإبراهيم الجعفري وجلال الطالباني وعبد العزيز الحكيم، من بين آخرين) برفقة مسؤولين في التحالف والرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير. ويتبادل هؤلاء الزعماء الابتسامات ويتعانقون أحيانا. وتشمل صور أخرى صور زعماء عرب و/أو غربيين برفقة زعماء إسرائيليين، خاصة صورة من العام ٢٠٠٤ للرئيس بوش يصافح رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق آريل شارون في البيت الأبيض خلال انتفاضة الأقصى، المعروفة أيضا بالانتفاضة الثانية (٢٠٠٠ – ٢٠٠٥).

وهذه الصور مهمة لخمسة أسباب:

- أولا، إنها تصور أي شخص يعمل لدى الحكومة في العراق على أنه متواطئ مع الغرب. وإذن فإن الأشخاص الذين يواصلون هذا التواطؤ أشخاص يحلّ قتلهم ويمكن قتلهم بدون وخز ضمير أخلاقي.
- ثانيا، من خلال اعتبار هؤلاء الزعماء "ألعوبة" في يد قوى أجنبية، يصبح انتقادهم الأخلاقي للجهاديين وتكتيكاتهم بدون مفعول – فمن هم حتى يطعنوا بشرعية المتمردين؟
- ثالثا، يوضح تصوير هذه الحكومات على أنها عاجزة ضرورة تقدم المسلمين الآخرين للقتال بدلاً عنها. ويصبح الجهاد إذا واجباً فردياً (فرض عين) على كل مسلم ومسلمة نظراً لتخلي الحكومات الموجودة المزعوم عن واجبها في حماية الأراضي الإسلامية وتحريرها من الكفار.
- رابعا، إيضاح كون عدم تمتع الجهاديين بدعم الحكومات الرسمية أو امتلاك مواردها يبرر احتياجهم إلى اتخاذ إجراءات استثنائية ودعواتهم إلى الاستشهاد.
- أخيرا، تضع هذه الصور الكفاح في العراق في إطار أوسع من مجرد تحرير ذلك البلد من احتلال أجنبي. ويتم تقديمه، بدلا من ذلك، على أنه كفاح لاستبدال جميع الأنظمة "الفاسدة" و"المرتزقة" التي تحكم العالم الإسلامي حاليا بأنظمة إسلامية حقا.

نقل جثة ضحية تفجير انتحاري إلى مستشفى في شمالي العراق في شهر شباط/فبراير ٢٠٠٤. قتل ٥٧ شخصا على الأقل وجرح أكثر من ٢٥٠ خلال الهجوم.
©AP Images

قد يؤدي الفصلان الأول والثاني إلى الإضعاف والتجريد من القدرات ما لم يتم إتباعهما بالفصل الثالث الذي يمثل الحل: الخلاص والفداء لجميع المسلمين عن طريق الإيمان بالله والرغبة في التضحية في سبيله.

ومن العناصر الهامة في الفصل الثالث الميثولوجيا المحيطة بالاستشهاد والشهداء. ويروج تنظيم القاعدة في العراق لصورة المسلم البطل المستعد للقيام بالتضحية بنفسه لفداء وتخليص أمته والانتقام للمعاناة الشخصية التي فرضت على مسلمين لا حول لهم ولا قوة، خاصة النساء. وتصدر الدعاية التي يحاط بها "الشهداء" في بيانات المواقع الإلكترونية وأشرطة الفيديو المصورة للعمليات وفي مجلة القاعدة الإلكترونية التي تحمل عنوان "سير أعلام الشهداء."

وتكشف هذه المواد، وهي عادة قصيرة ومتناقضة في المعلومات التي تقدمها، ودعائية إلى حد كبير جدا، أربع أفكار رئيسية تتألف منها (أسطورة) ميثولوجيا الاستشهاد:

- الورع الديني الصادق.
- الاستعداد عن طيب خاطر للتضحية بالثروة والعلاقات الشخصية لوجه الله.
- التوق إلى تنفيذ "عملية استشهادية".
- النجاح في عمليات التضحية.

الورع الديني الصادق

تزخر أشرطة فيديو المتمردين بصور المسلمين الورعين الأتقياء وهم يصلون ويرددون "الله أكبر"، حتى أثناء قيامهم بعملية، كزرع عبوة ناسفة محلية الصنع. ويصوَر المفجرون الانتحاريون، بشكل خاص، دائما كأشخاص متدينين جدا. وتقدم السير دوماً تقريباً معلومات مطولة تظهر أن "الشهيد" كان يصلي بلا توقف، ويقضي وقته بقراءة أو حفظ القرآن الكريم، ويقوم بأكثر من الواجبات التي يفرضها الدين في تعبيره الطوعي عن إخلاصه للدين وتفانيه في خدمته.

والتأكيد على الورع والتقوى مهم لأن التفجيرات الانتحارية لا تعتبر استشهادا إلا إذا كان المفجر الفرد مسلماً ورعاً يقاتل من وحي الإيمان بالله ويموت في سبيله. وليس من الممكن لأحد أن يتوقع ثواب الاستشهاد إذا كان دافعه أو دافعها شيئا آخر عدا حب الله والجهاد في سبيله. ولعل الأهم من ذلك أن السلفيين الجهاديين يدركون أن الحكومات الإسلامية تحاول تصوير الجهاديين بأنهم "منحرفون" وأفراد مضللون لا يعرفون إلا القليل عن الإسلام تعرضوا لغسل الدماغ لتنفيذ الهجمات الانتحارية. ولذا فإن التشديد على تدين المفجرين هو محاولة من القاعدة لمواجهة هذه المحاولات.

الاستعداد للتضحية بالثروة الشخصية وبالروابط الأسرية

تصور دعاية القاعدة "الشهداء" كأشخاص تخلوا عن كل ما هو عزيز على أنفسهم لتأدية واجب أسمى: الجهاد والاستشهاد. وهم يدعون أن الكثير من المفجرين ينتمون إلى أسر غنية أو أنهم قدموا تضحيات شخصية، كبيع سياراتهم، أو استعمال مدخراتهم الشحيحة، أو الاعتماد على تبرعات، للقيام بالرحلة إلى العراق. وتستخدم سير عديدة الصور المؤثرة لأب يترك طفله الوليد أو لزوج يترك زوجته للقتال والموت في سبيل الله.

وتهدف هذه الروايات إلى إلهام الآخرين ووضع معيار جديد للإخلاص والتفاني في خدمة الدين. وهي تتطلب من المسلم، كي يكون مسلماً صالحاً، أكثر من مجرد تأدية فروض الصلاة بانتظام واتباع الشعائر الدينية. يجب على المرء أيضاً أن يبذل كل الجهد الضروري للوصول إلى أرض الجهاد والموت في سبيلها.

ادعى جيش أنصار السنة في موقعه الإلكتروني في شهر آب/أغسطس، ٢٠٠٤ أن هذا كان واحدا من ١٢ عاملا نيباليا اختطفوا في العراق.
©AP Images

الحماسة للقيام "بعملية استشهادية"

نقرأ المرة تلو الأخرى في السير أن "الشهداء" تواقون إلى الموت في سبيل الله وأنهم يحبطون عندما يحرمون من ذلك أو يتم تأخيرهم عن القيام بذلك. ويظهر كل شريط فيديو تقريباً المفجرين كأشخاص سعداء: يلوحون عادة بالوداع وقد ارتسمت الابتسامات على وجوههم وهم يَعْدون نحو عرباتهم المفخخة، مجسدين بذلك فكرة السعادة بالتضحية والتأكد من الثواب الذي سيحصلون عليه في الجنة.

تهدف فكرة الحماس والسعادة هذه إلى إثبات أن المفجرين لا ينفذون الهجمات الانتحارية نتيجة الإكراه أو غسل الدماغ. إلا أن القنوات الفضائية العراقية كثيرا ما تذيع "اعترافات" لمفجرين تم إحباط هجماتهم يدّعون أنهم لم يعرفوا أنهم كانوا على وشك الاشتراك في عملية انتحارية، لأن شخصا آخر كان يتحكم في فتيل التفجير فيما كانوا يعتقدون بأنهم كانوا ينقلون الشاحنة إلى الهدف. ويقال إن أيدي بعضهم قُيدت إلى عجلة القيادة كما يدعي آخرون أنهم جُرّعوا مخدرات وعرضت عليهم مواد إباحية، لإثارتهم للقاء حوريات الجنة. لذا، فإن فكرة التوق إلى الموت ترمي إلى تبديد هذه المزاعم ورفع مكانة المفجرين الانتحاريين إلى شهداء مؤمنين بطوليين يتحكمون كليا في خياراتهم ومصائرهم.

النجاح في العمليات الاستشهادية

تؤكد سير الشهداء دائما، أو تبالغ في أحيان أكثر، نجاح العمليات الانتحارية وكأنها تؤكد للمجندين المحتملين أن تضحياتهم الدنيوية لن تذهب سدى. ويصل عدد "المرتدين" و"الصليبيين" و"عملاء وكالة المخابرات المركزية الأميركية" الذين يدعى أنهم قتلوا في عملية واحدة إلى المئات في الكثير من الأحيان. ويجد المرء بشكل متكرر ادعاءات بأن المفجرين قتلوا أكثر مما أُعلن عنه في وسائل الإعلام، التي "تعتمد على أرقام أميركية". ويسمع المرء في كثير من الأحيان أن الأميركيين ألقوا بجثث موتاهم في الأنهار أو في قبور أعدت بسرعة لإخفاء خسائرهم الفعلية. وبالنظر "لنجاح" العمليات فإن كتاب السيرة يصفون كلاً منها بأنها "غزوة"، كغزوة الناصرية (الهجوم على القوات الإيطالية في الناصرية، الذي أسفر عن مقتل ٣١ شخصا). واستخدام كلمة "غزوة" إشارة مقصودة إلى المعارك التي وقعت في أوائل التاريخ الإسلامي، عندما قاتل المسلمون غير المؤمنين وانتصروا عليهم في نهاية الأمر.

فهم الحيل الخادعة

إن ميثولوجيا الاستشهاد لا تكفي لتفسير جميع التفجيرات الانتحارية في العراق. إلا أن الإيديولوجيا والوضع ضمن إطار ديني والروايات المثيرة للعواطف، تساعد في إيضاح كيفية إبطال الجهاديين مفعول الأعراف التي تشكل وازعاً ذاتياً ضد الجريمة والعنف وإتاحتها لهم الظهور بمظهر القوى الأخلاقية حتى أثناء عملهم بطرق غير أخلاقية.

وتدعم تبريرات قتل الأشقاء المسلمين بروايات مؤلمة مثيرة للعواطف تربط معاناة وإذلال المسلمين بما يصور على أنه تواطؤ الزعماء المسلمين العاجزين وموظفيهم مع الظالمين الغربيين الذين يدعي المتطرفون أنهم يسعون إلى القضاء على الإسلام وإخضاع أراضي المسلمين. ويجعل الجهاديون الأمر يبدو، من خلال وضعهم الصراع في إطار هذا السياق، على أنه من المنطقي وجود حاجة لكادر "بطولي" يتقدم وينقذ شرف الأمة ويمحو عار الذل بضرب أولئك الذين يعملون مع العدو.

وفهم هذه الحيل الخادعة خطوة مهمة لمحاربة الإرهاب.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعبر بالضرورة عن آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

نماذج جديدة لنزاعات القرن الحادي والعشرين

ديفيد جي. كيلكلين

تعتبر القوة المتعددة الجنسيات لمراقبة وقف إطلاق النار بعد حرب العام ٢٠٠٦ بين إسرائيل وحزب الله مثالا على التعاون الحديث بين المجتمع الدولي لمعالجة أنواع جديدة من النزاعات التي ظهرت في القرن الحادي والعشرين. ويبدو في الصورة الأمين العام للأمم المتحدة بان كي – مون وهو يشكر الرجال والنساء من ٣٠ دولة ممن ساهموا في هذا المجهود.
حسين ملا/ AP Images©

الدكتور ديفيد دجيه. كيلكلين ضابط سابق برتبة لوتينانت كولونيل في الجيش الأسترالي، ويشغل حاليا منصب كبير مستشاري الجنرال قائد القوة متعددة الجنسيات – العراق لشؤون مكافحة التمرد. وشغل سابقا منصب كبير مخططي الاستراتيجيات في مكتب منسق مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأميركية ومنصب مستشار خاص لوزارة الدفاع الأميركية لشؤون الحرب غير النظامية ومقاومة الإرهاب في المراجعة الدورية التي تتم كل أربع سنوات للسياسات الدفاعية (Quadrennial Defense Review). وهو يساهم بانتظام في المدونة الإلكترونية مجلة الحروب الصغيرة (Small War Journal Blog). ويعكس هذا المقال، كمقالاته الإلكترونية، آراءه الشخصية فقط.

على الرغم من النظرة الخلفية الوردية إلى حد ما التي ننظر بها الآن إلى الحرب العالمية الثانية، كان هناك انشقاق كبير آنذاك حول أهداف الحرب وسلوكها واستراتيجيتها. إلا أنه لم يكن هناك أي اختلاف حول كونها حربا بالفعل أو حول كون دول المحور هي العدو/المعتدية.

قارن ذلك بالحرب على الإرهاب. البعض يجادل في صحة الفكرة القائلة إنه يمكن تعريف الصراع على أنه حرب. ويشكك آخرون في حقيقة التهديد. وينحو منتقدو الحرب المنتمون إلى أقصى اليسار باللوم على المصالح الصناعية الأميركية، فيما ترى فئة متطرفة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كمؤامرة هائلة أنزلتها أميركا بنفسها. وبشكل أكثر جدية، يختلف الناس حول العدو. هل القاعدة خطر حقيقي أم أنها نتاج جنون ارتياب(بارانويا) غربي وردة فعل مبالغ فيها؟ هل هي حتى منظمة حقيقية؟ وهل القاعدة حركة شعبية جماهيرية أم مجرد فلسفة، أو حالة ذهنية؟ هل العدو كله إرهاب؟ هل هو التطرف؟ أم هل الإسلام نفسه تهديد بشكل ما؟ وهل هذه مشكلة عسكرية أو سياسية أو حضارية أساسا؟ وكيف سيكون شكل "الانتصار"؟ هذه الأمور الأساسية موضع نزاع، لم يكن قائماً حول العناصر الأساسية في الصراعات السابقة (ربما باستثناء الحرب الباردة).

والحقيقة هي أن تهديد القاعدة حقيقي للغاية. إلا أن الغموض ينشأ لأن هذا الصراع يخرج عن إطار النماذج الموجودة – بما في ذلك المفاهيم المتعلقة بـ "الحرب" و"الدبلوماسية" و"الاستخبارات" وحتى "الإرهاب". فكيف، على سبيل المثال، نشن حربا على لاعبين لا يمثلون دولا ويختبئون في دول بيننا وبينها سلام؟ وكيف نعمل مع حلفاء توفر أراضيهم ملجأ آمنا لأعداء ليسوا دولا؟ وكيف نهزم أعداء يستغلون أدوات العولمة والمجتمعات المفتوحة، بدون أن ندمر الأشياء ذاتها التي نسعى لحمايتها؟

نموذج جديد

يجادل الجنرال البريطاني روبرت سميث بأن الحرب – المعرّفة على أنها صراع صناعي بين الدول تخوضه جيوش، تقرر فيه المعارك وقعقعة السلاح النتيجة- لم تعد موجودة، وأننا أصبحنا الآن بدلا من ذلك في عصر "الحرب بين الناس"، حيث تتوقف فائدة القوات العسكرية وصلاحيتها للاستعمال على قدرتها على التكيف مع سياقات سياسية معقدة والاشتباك مع أعداء ليسوا دولا تحت أنظار الرأي العام العالمي النزاع إلى الانتقاد. ولا ريب في أنه، في الصراعات المعقدة المتعددة الأطراف وغير النظامية كالعراق، أخفق القتال على طريقة الحروب التقليدية في تحقيق نتائج حاسمة. وقمنا بدلا من ذلك بتبني أساليب القيام

بأعمال الشرطة كالمحافظة على الأمن والنظام، وبناء الدول، ومقاومة التمرد – وطورنا أدوات جديدة ساهمت فيها وتستخدمها الوكالات المختلفة "أثناء انشغالنا" بالحرب والأمور الأخرى.

أسماء الوكالات الأميركية المنخرطة في الحرب على الإرهاب تعرض خلال جلسة استماع ومساءلة حول إعادة تنظيم الوكالات الفدرالية لمحاربة الإرهاب في شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٢.
كينيث/ AP Images©

وعلى نحو مماثل، نقوم تقليدياً بتصريف الدبلوماسية القائمة بين الدول عن طريق التعاطي مع فئات النخبة في المجتمعات الأخرى: الحكومات وطبقة المثقفين وكبار رجال العمال، من بين آخرين. والنظرية هي أن حل المشاكل يصبح ممكناً عندما تتفق النخب، ويتغلب الأسلوب الأكثر عقلانية وأقل عاطفية، وتتفاوض الحكومات ثم تنفذ الاتفاقيات. وتنطلق مفاهيم السيادة والدولة القومية وأنظمة المعاهدات والمؤسسات الدولية جميعها من هذا النموذج وتصب فيه. ومع ذلك فإن العدو ينظم على المستوى غير النخبوي، مستغلاً مشاعر الاستياء والانسلاخ في العديد من الدول، ليجمّع تأثيرات اللاعبين المتعددين على المستوى الشعبي في حركة جماهيرية ذات امتداد عالمي. كيف تعالج النماذج النخبوية للدبلوماسية ذلك التحدي؟ ليست هذه مشكلة جديدة – فقد وضعت برامج مختلفة في السفارات الأميركية خلال الحرب الباردة للتعاطي مع عناصر غير حكومية في المجتمعات المدنية المعرضة للتخريب الشيوعي. ولكن العمل بالكثير من هذه البرامج توقف بعد عام ١٩٩٢، كما أن مشاكل التطرف الديني أو العنف السياسي تتطلب تغيير الأساليب بشكل حاذق.

كما أن وكالات الاستخبارات التقليدية ليست مصممة أساسا لاكتشاف ما يدور من أمور بل للحصول على الأسرار من الدول الأخرى. وهي مهيأة جيداً للتعامل مع الأهداف التي تملكها وتوجهها دول أخرى ولكنها أقل ملاءمة للتعامل مع لاعبين ليسوا دولا، حيث تكون المشكلة الحصول على معلومات غير سرية ولكنها موجودة في منطقة جغرافية أو بشرية ممنوعة أو معادية أو لا يمكن الوصول إليها. ولا تستطيع وكالات الاستخبارات التقليدية، حتى عندما يتعلق الأمر بالدول، تبليغنا بما يدور من أمور، وإنما فقط بما تعتقد الحكومات الأخرى أنه يجري من أمور. لماذا، على سبيل المثال، قصرت وكالات الاستخبارات الغربية في معرفة أمر انهيار الاتحاد السوفييتي الوشيك في العام ١٩٩٢؟ السبب، جزئيا، هو أننا كنا نقرأ بريد الزعماء السوفييت – وهم أنفسهم أخفقوا في فهم عمق خيبة أمل الشعب بالشيوعية وتحرره من أوهامها. ولماذا اعتقدت معظم الدول (بما فيها تلك التي عارضت الحرب في العراق) في العام ٢٠٠٢ أن نظام حكم صدام حسين كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل؟ لأنها كانت تعترض اتصالات النظام، وكان العديد من كبار أعضاء النظام يعتقدون بأن العراق كان يمتلكها.

وتدعم اتجاهات قائمة منذ فترة طويلة هذه البيئة. ومن هذه الاتجاهات الدافعة لها العولمة وردة الفعل المعادية لها، وظهور لاعبين ليسوا دولاً يملكون قدرات تماثل قدرات بعض الدول، والتفوق العسكري الأميركي التقليدي الذي يرغم جميع الأعداء على تجنب مواطن قوته والتحول إلى أساليب غير تقليدية، وبيئة إعلامية عالمية تستند إلى الإنترنت والاتصالات عبر الأقمار الصناعية. وستبقى كل هذه الاتجاهات قائمة حتى لو اختفت القاعدة غدا، وإلى أن نظهر قدرة على هزيمة هذا النوع من التهديد، سيتبنى أي عدو ذكي أسلوبا مماثلا. وقد ننظر في المستقبل إلى القاعدة، لا على أنها كانت بأي شكل تحدياً لا يتكرر بشكل مماثل، وإنما على أنها كانت نذير عصر جديد من الصراع.

التكيف مع البيئة الجديدة

لذا، وكما لاحظ سفير مقاومة الإرهاب الأميركي السابق هانك كرمبتون، يبدو أننا نقف على عتبة عصر جديد للحرب يقتضي رداً تكيفيا. والدول القومية في هذا العصر الجديد، مثلها في ذلك مثل الديناصورات التي تفوقت عليها حيوانات ثديية أصغر وأضعف ولكنها أكثر قابلية للتكيف، أكثر قوة ولكنها أقل خفة حركة ومرونة من الأعداء الذين ليسوا دولا. وسيتوقف النجاح، كما هو الحال في جميع النزاعات، على قدرتنا على التكيف، والتوصل إلى ردود جديدة، واستباق بيئة مهددة بالخطر وسريعة التغير.

ويتكيف العدو بسرعة كبيرة. خذ مثلاً تطور القاعدة منذ أواسط عقد التسعينيات من القرن الماضي. فالهجمات المبكرة (الهجمات على السفارتين الأميركيتين في شرق إفريقيا، وعلى المدمرة يو إس إس كول، وهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر نفسها) كانت "حملات" قام بها

في مستودع في ضواحي العاصمة الأردنية عمان يقوم عمال بتخزين بطانيات تبرعت بها الوكالة الأميركية للتنمية الدولية لتوزيعها في العراق.
ليفتريس بيتاراكيس/ AP Images©

مبعوثون: شكلت القاعدة فريقا في الدولة أ، وأعدته في الدولة ب، وحققت تغلغله بصورة سرية في الدولة ج لمهاجمة هدف. وقد قمنا، ردا على ذلك، بتحسين أمن أنظمة النقل والمواصلات، وحماية البنية التحتية، وضبط الهجرة. وكرد على ذلك، قام الإرهابيون من جانبهم بتطوير أسلوب "حرب العصابات"، حيث قاموا، بدلا من تشكيل فريق في مكان بعيد وإدخاله بصورة سرية لشن الهجوم، بإنشاء الفريق قرب الهدف مستخدمين مواطنين من الدولة المضيفة. واتبعت تفجيرات مدريد ولندن وهجمات الدار البيضاء وإسطنبول وجدة هذا النمط، كما تم اتباعه في مؤامرة تفجير طائرات الركاب التي أحبطت في لندن في صيف العام ٢٠٠٦.

وكثيرا ما توصف هذه الهجمات بأنها "محلية النشأة"، ولكنها استلهمت تنظيم القاعدة الذي استغلها وقام إلى حد ما بتوجيهها. فعلى سبيل المثال، طار محمد صديق خان، زعيم عملية تفجيرات لندن في السابع من تموز/يوليو ٢٠٠٥ ، إلى باكستان وربما اجتمع آنذاك مع ممثلي القاعدة للحصول على التوجيه والتدريب قبل وقوع عملية التفجيرات بفترة من الزمن. ولكن الأسلوب الجديد ألغى بصورة مؤقتة مفعول تدابيرنا المضادة – فبدلا من تهريب ١٩ شخصا إلى الداخل، أحضر الإرهابيون رجلا واحدا إلى الخارج – متجنبين إجراءاتنا الأمنية الجديدة. لقد تكيف الإرهابيون مع نهجنا الجديد بتطوير أساليب جديدة خاصة بهم.

ونحن الآن، بطبيعة الحال، متيقظون لأسلوب "حرب العصابات" هذا، كما أظهر فشل مؤامرات شهر آب/أغسطس ٢٠٠٦ في المملكة المتحدة وغيرها من الهجمات المحتملة الحديثة. إلا أنه ما من شك في أن الإرهابيين يطورون حالياً بالفعل تدابير جديدة تكيفية. والأساليب التي تنجح في مكافحة الإرهاب تصبح بمجرد نجاحها تقريباً أساليب قديمة أصبحت باطلة وانقضى وقت استعمالها: يتطور أعداؤنا ويغيرون أساليبهم حالما نسيطر على أسلوبهم الحالي. وليست هناك "وصفة سحرية" للقضاء عليهم. فالإرهاب، كالملاريا، يتغير بصورة متواصلة متخذاً أشكالاً جديدة تتطلب مجموعة ردود يتم تطويرها وتحديثها بصورة متواصلة.

خمس خطوات عملية

لقد قامت الولايات المتحدة حتى الآن، في سياق ردها على هذا الشكل المضاد للبديهة من أشكال الحرب، بأمرين أساسيين. أولا، قمنا بتحسين المؤسسات الموجودة (عن طريق عمليات مثل إصلاح الاستخبارات وتأسيس وزارة الأمن الوطني، وتوفير قدرة إضافية على خوض الحرب "غير النظامية" – أي غير التقليدية – ضمن وزارة الدفاع). ثانيا، بدأنا بالعمل على التوصل إلى نماذج جديدة لتناسب الواقع الجديد. وفي حين أن هذه النماذج لم تنبثق كلياً بعد، إلا أن بعضها – كفكرة التعامل مع النزاع كمشكلة مقاومة تمرد واسع النطاق جدا، تقتضي استجابات غير عسكرية أساسا، مقرونة بتدابير لحماية السكان المعرضين لخطر الوقوع تحت تأثير العدو – قد بدأ يحقق فعاليته.

إلا أن صناع القرار في هذه الأيام، من منظور ما، يشبهون قليلا "جنرالات القصور" في الحرب العالمية الأولى – يواجهون شكلا من أشكال النزاع يلغي الحكمة المتوارثة، تماما كما واجه الجنرالات "لغز الخنادق" في ١٩١٤ – ١٩١٨. فنحن نواجه، مثلهم، بيئة صراع تغيرت جذرياً بفعل أوضاع تكنولوجية واجتماعية جديدة، ليست المنظمات والمفاهيم الموجودة ملائمة لها. ولدينا مثلهم "أعمال التفافية"، ولكننا لم نخرج بعد بمفاهيم وتكنولوجيات ومنظمات اختراقية – تماثل الحرب الخاطفة في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي- من شأنها أن تحل لغز هذه البيئة الخطرة الجديدة.

ولا يوجد حل سهل (لو كان موجودا لكنا عثرنا عليه الآن)، ولكن من الممكن اقتراح طريق التقدم إلى الأمام. وهي تتضمن ثلاث خطوات متعلقة بالمفاهيم لوضع نماذج جديدة، وفي نفس الوقت، خطوتين تنظيميتين لخلق قدرة على خوض هذا النوع من النزاعات. وليس من المقصود أن يكون ذلك قاعدة محددة لما ينبغي استخدامه، بل مجرد نهج محتمل. والأفكار المقدمة ليست مبتكرة بشكل خاص، بل إن هذا الاقتراح يجمّع أفكارا موجودة ويدمجها في نهج سياسي.

١. **طوّر معجماً جديدا:** أشار البروفسور مايكل فلاهوس إلى أن اللغة التي نستخدمها لوصف التهديدات الجديدة تعرقل بفعالية التفكير الخلاق. وتعتمد تعابيرنا على صيغ سلبية، تقول إن البيئة ليست هذا أو ذاك، بدل أن تصف ماهيتها. ومن هذه التعابير كلمات وصفية مثل "غير تقليدية" و"ليست دولة" و"غير مألوفة" و"غير نظامية." ولا شك في أن المصطلحات تؤثر في قدرتنا على التفكير بوضوح. ولعل أحد أسباب تعامل المخططين في العراق مع "العمليات القتالية الرئيسية" في العراق (المرحلة الثالثة) كمرحلة حاسمة، دون أن يدركوا أن مرحلة ما بعد النزاع في هذه الحالة ستكون حاسمة الأهمية، هو أن المرحلة الثالثة اعتبرت حاسمة في التسمية التي أطلقت عليها. فاسمها الرسمي الكامل هو "المرحلة الثالثة – العمليات الحاسمة". وللتفكير بوضوح في التهديدات الجديدة، نحتاج إلى معجم جديد يستند إلى الخصائص الفعلية الملاحظة للأعداء الحقيقيين الذين:

- يدمجون بين الإرهاب والتخريب والعمل الإنساني والتمرد لدعم الدعاية الرامية إلى التأثير على مدركات الجماهير المحلية والعالمية.
- يجمّعون تأثير عدد كبير من اللاعبين على المستوى الشعبي، المبعثرين عبر دول عديدة، في حركة جماهيرية أكبر من مجموع أجزائها، ذات قيادة ووظائف تخطيطية موزعة تحرمنا من أهداف يمكن اكتشافها.
- يستغلون سرعة وانتشار وسائل الاتصال الحديثة لتعبئة مؤيديهم وأنصارهم، بسرعة أكبر بكثير مما تستطيع الحكومات حشده.
- يستغلون أنظمة معتقدات عميقة الجذور في أسس الهوية الدينية والإثنية والقبلية والثقافية، لإيجاد ردود فعل فتاكة جداً وغير عقلانية بين المجموعات الاجتماعية.
- يستغلون الملاذات الآمنة كالمناطق غير المحكومة أو غير المحكومة بشكل كاف (في المساحة الجغرافية أو الفضاء السبرياني أو الافتراضي المعلوماتي)، والمناطق العمياء العقائدية والدينية والثقافية في إدراك المرء التي تعجزه عن الإدراك والتمييز، أو المنافذ القانونية.
- يستخدمون هجمات رمزية بارزة مصحوبة بدعاية كبيرة تجتذب الأضواء وتثير الدول دافعة إياها إلى ردود الفعل المبالغ فيها التي تلحق الضرر بمصالحها في المدى البعيد.
- يطلقون العديد من التحديات الصغيرة قليلة الكلفة وضيقة النطاق لاستنزاف طاقتنا من خلال الدفع إلى بذل جهود احتواء ومنع وردود باهظة التكاليف في العشرات من المناطق النائية.

قد تولد هذه الملامح التي تتسم بها البيئة الجديدة معجماً لوصف التهديد بشكل أفضل. وبما أن التهديدات الجديدة ليست من دول، يتعين أن لا يكون أساس نهجنا هو العلاقات الدولية (دراسة كيفية تفاعل الدول في أطر نخبوية في الدول)، بل الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان (دراسة الأدوار الاجتماعية والجماعات والمكانة الاجتماعية والمؤسسات والعلاقات بين أفراد المجموعات السكانية البشرية ضمن أطر غير نخبوية وليست خاصة بدول).

٢- **ضع استراتيجة كلّية صائبة:** إذا كانت هذه المجابهة تستند إلى اتجاهات موجودة منذ زمن طويل فهذا يعني أن الصراع قد يكون صراعا طويلا يستغرق جيلاً أو عدة أجيال. وهذا يعني أننا نحتاج إلى "نظرة طويلة" و"نظرة عريضة" تأخذان بالاعتبار أفضل الطرق لنسج جميع خيوط القوة القومية معاً، بما في ذلك القطاع الخاص والمجتمع الأوسع. وبالتالي، نحتاج إلى استراتيجية كلية شاملة يمكن للشعب الأميركي والحكومات الأميركية المتعاقبة وحلفائنا الرئيسيين وشركائنا حول العالم، دعمها والمحافظة على استمرارها. وتشتمل صياغة مثل هذه الاستراتيجية الكلية الشاملة على اتخاذ أربعة قرارات حاسمة الأهمية:

- اتخاذ قرار حول ما إذا كانت مصالحنا ستخدم على أفضل وجه من خلال التدخل ومحاولة تخفيف عملية الاضطراب السياسي والديني في العالم الإسلامي، أو بالسعي عوضا عن ذلك إلى احتواء أي انتقال للعنف أو الاضطراب إلى المجتمعات الغربية. وهذا الخيار شبيه بالخيار بين "الدحر" و"الاحتواء" خلال الحرب الباردة وهو عامل أساسي في صياغة رد طويل الأمد.
- اتخاذ قرار حول كيفية توزيع الموارد بين العناصر العسكرية وغير العسكرية للقوة القومية. إن إنفاقنا وجهودنا الحالية عسكريان في معظمهما. بالمقابل، يوحي أسلوب "مقاومة عالمية للتمرد" بضرورة تخصيص حوالي ٨٠ بالمئة من الجهود للنشاط السياسي والدبلوماسي والتنموي والاستخباراتي والإعلامي، وحوالي ٢٠ بالمئة للنشاط العسكري. وسيتوقف تقرير ما إذا كان ذلك ملائما على قرارنا المتعلق بالتدخل أو الاحتواء.
- اتخاذ قرار حول حجم ما سينفق (في الموارد والأرواح) على هذه المشكلة. وسيتطلب ذلك حكما على المخاطر يأخذ بالاعتبار احتمال وعواقب وقوع هجمات إرهابية في المستقبل. كما يتعين أن يأخذ هذا القرار بعين الاعتبار حجم ما يمكن إنفاقه على الأمن دون فرض

عبء تكلفة لا يمكن لمجتمعاتنا تحمل استمراره.

- اتخاذ قرار حول وضع أولويات الجهود جغرافيا. ويذهب معظم الجهود في الوقت الحاضر إلى العراق، وجزء أقل بكثير إلى أفغانستان، وأقل من ذلك لجميع المناطق الأخرى. ويعود سبب ذلك جزئيا إلى أن إنفاقنا عسكري في أغلبه وإلى أننا قررنا التدخل في قلب العالم الإسلامي. وقد تؤدي خيارات مختلفة نتوصل إليها حول الجهود العسكرية/غير العسكرية والتدخل/الاحتواء إلى أولويات إقليمية مختلفة كثيراً مع مرور الوقت.

ومن الواضح أن الخصائص المحددة لاستراتيجية أي حكومة ستختلف باختلاف الوضع المتطور، بل إن مثل هذه المرونة في التحرك حاسمة. إلا أن تحقيق إجماع قابل للاستمرار، على الصعيدين القومي والعالمي، حول القرارات الأربعة المذكورة أعلاه، سيوفر أساسا طويل الأمد للسياسة عبر الحكومات المتعاقبة.

٣- عالج عدم التوازن في القدرات الحكومية:

تشكل ميزانية الدفاع الأميركية في الوقت الحاضر قرابة نصف مجمل إنفاق الدفاع العالمي، فيما يبلغ تعداد العناصر النظامية في القوات المسلحة الأميركية حوالي ١,٦٨ مليونا. في مقابل ذلك، توظف وزارة الخارجية الأميركية حوالي ٦,٠٠٠ موظف في السلك الخارجي، فيما توظف الوكالة الأميركية للتنمية الدولية حوالي ٢,٠٠٠ موظف. وبعبارة أخرى، إن حجم وزارة الدفاع الأميركية يزيد حوالى ٢١٠ مرات على حجم الوكالة الأميركية للتنمية الدولية ووزارة الخارجية الأميركية مجتمعتين – يفوق عدد الموسيقيين الذين يعملون في الفرق الموسيقية التابعة لوزارة الدفاع عدد أعضاء السلك الدبلوماسي بأكمله بكثير.

وليس المقصود بذلك انتقاد وزارة الدفاع – فالقوات المسلحة تتطلب كثافة في اليد العاملة ورأس المال (أي تحتاج إلى قدر كبير منهما) وهي دائما أكبر حجما من الوكالات الدبلوماسية ووكالات تقديم المساعدات. ولكن نظراً لأهمية التنمية والدبلوماسية والإعلام (ألغيت وكالة الإعلام الأميركية في العام ١٩٩٩، وتشمل الأرقام المتعلقة بوزارة الخارجية المكتب الذي خلفها) في هذا النوع من أنواع النزاع، فإن هناك عدم توازن واضحاً بين عناصر القدرات العسكرية وغير العسكرية. وهذا يشوّه السياسة ويعتبر غير معتاد قياساً على المعايير العالمية.

انضم جنود من دول كثيرة، بينهم رجال الكوماندوز الإندونيسيون هؤلاء الذين يصفقون لزملائهم خلال تدريب على مكافحة الإرهاب جرى خارج مدينة جاكارتا في العام ٢٠٠٦ ، إلى الحرب العالمية على الإرهاب.
إروين فيدرياسيه/ AP Images©

فعلى سبيل المثال، يبلغ حجم القوات العسكرية الأسترالية نحو تسعة أضعاف حجم الوكالات الأسترالية المختصة بالدبلوماسية وتقديم المساعدات مجتمعة. أي أن الذراع العسكرية أكبر، ولكنها ليست أكبر بـ ٢١٠ أضعاف من العناصر الأخرى المشكلة للقوة القومية.

ومما يحسب لوزارة الدفاع أنها تدرك المشاكل المتأصلة في مثل عدم التوازن هذا، وقد ذكرت ذلك في المراجعة الدورية التي تتم كل أربع سنوات للسياسات الدفاعية في العام ٢٠٠٦. ولدى حكومة الرئيس بوش برامج جارية حالياً لزيادة القدرة غير العسكرية. ولكننا نحتاج، للنجاح على المدى الطويل، إلى التزام مستمر بتعزيز العناصر غير العسكرية للقوة القومية. وما يعرف بالقوة الناعمة، كقوة القطاع الخاص الاقتصادية والسمعة القومية والثقة الثقافية، بالغة الأهمية لأن القوة العسكرية وحدها لا يمكنها التعويض عن فقدانها.

ستتطلب هذه الخطوات الفكرية الثلاث بعض الوقت (وهذا، بالمناسبة، سبب جيد للشروع فيها). ولكن في غضون ذلك، هناك خطوتان تنظيميتان قد تمهدان الطريق لذلك:

٤- حدّد "وكالات الخدمات الاستراتيجية" الجديدة:

ألقي دور رئيسي في الحرب على الإرهاب على عاتق قوات العمليات الخاصة بسبب قدرتها على القيام بعمليات مباشرة ضد الأهداف الواقعة في مناطق نائية أو ممنوعة. وفي غضون ذلك، جادل ماكس بوت بأننا نحتاج مرة أخرى إلى شيء ما يشبه مكتب الخدمات الإستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية، والذي كان يمتلك قدرات في مجالات التحليل والمخابرات وعلم الإنسان

والعمليات الخاصة والإعلام والعمليات النفسية والتكنولوجيا.

النعوت مهمة: قوات خاصة مقابل خدمات استراتيجية. قوات العمليات الخاصة ذات أهمية خاصة. وتحدد بالمقارنة الداخلية مع بقية القوات المسلحة – قوات العمليات الخاصة تتولى مهمات "تتجاوز قدرات" القوات المستخدمة للأغراض العامة. في المقابل، كان مكتب الخدمات الإستراتيجية إستراتيجيا. وكان يتم تحديد ماهيته بمقارنته مع بيئة خارجية وتولى مهمات ذات أهمية إستراتيجية، وكان يحصل ويتخلى بسرعة عن القدرات، حسبما تقتضي الحاجة. وقوات العمليات الخاصة تكاد تكون كلها عسكرية، بينما كان مكتب الخدمات الإستراتيجية كيانا مؤلفا من موظفين من عدة وكالات ويشتمل على عنصر مدني كبير، وكان جميع العسكريين العاملين فيه تقريباً من المتطوعين للخدمة في الحرب لحاجة طارئة (مدنيون موهوبون يملكون مهارات ذات بعد إستراتيجي، تطوعوا فترة الحرب). وتعيد قوات العمليات الخاصة جذورها إلى مكتب الخدمات الإستراتيجية، ولكن في حين أن قوات العمليات الخاصة في هذه الأيام قوات نخبة عسكرية تملك قدرات بالغة التخصص جعلت على أكثر ما يمكن أن تكون عليه فعالية لسبع مهمات معتادة متعارف عليها، كان مكتب الخدمات الإستراتيجية منظمة مدنية – عسكرية مختلطة تولت أي مهمة تطلبّها الوضع، وشكلت قدراتها حسب الحاجة.

وسيكون تحديد القدرات التي تشكل خدمات إستراتيجية في هذه الأيام خطوة رئيسية في وضع أولويات الجهود المشتركة بين الوكالات المختلفة. وتشمل قدرات التعامل مع التهديدات المنبثقة عن القاعدة الشعبية لا عن النخبة، معلومات استخباراتية عن الثقافة والتراث العرقي، وتحليل الأنظمة الاجتماعية، والعمليات الإعلامية (أنظر أدناه)، وفرق الحوكمة والشؤون الإنسانية المختصة بالدخول المبكر والتهديد شديد الخطورة، وفرق المفاوضات الميدانية والوساطة، والاستطلاع بواسطة تقنية البيانات البيولوجية للتعرف على الهوية، وطائفة منوعة من القدرات الأخرى ذات الصلة الإستراتيجية. وتتغير أهمية هذه القدرات وصلتها بالوضع مع مرور الوقت – فبعضها مما له أهمية وصلة وثيقة بالوضع الآن لن يعود كذلك، في حين أن البعض سينشأ. والمفتاح هو إيجاد قدرة تسهم فيها وتستخدمها الوكالات المختلفة للحصول بسرعة على التقنية والتكنولوجيا واستخدامها في وضع سريع التغير.

عضو في الحرس الوطني الأميركي يعمل مع ضابط شرطة عراقي في وحدة الجرائم الرئيسية في غربي بغداد.
ديفيد غوتينفيلدر/ ©AP Images

٥- قم بتطوير قدرة في مجال الحرب الإعلامية الإستراتيجية:

تتمتع القاعدة بمهارة كبيرة في استغلال أعمال متعددة ومنوعة يقوم بها أفراد وجماعات، من خلال وضعها في إطار سردي دعائي للتأثير على عواطف الجماهير المحلية والعالمية. ولدى تنظيم القاعدة شبكة تجمع المعلومات حول النقاش الدائر في الغرب وترفعه، مع تقويم لفعالية حملة التنظيم الدعائية إلى زعمائها. ويستخدم التنظيم العمليات الفعلية (التفجيرات ونشاطات التمرد وقطع الرؤوس) كمادة داعمة لحملة "دعاية مسلحة" متكاملة. والجانب "الإعلامي" في عمليات القاعدة هو الأساسي. أما الفعلي فهو مجرد أداة لتحقيق نتيجة دعائية. وتتبنى طالبان وجي إس بي سي (التي كانت تعرف سابقا بالجماعة السلفية للوعظ والقتال، ولكنها تعرف الآن بالقاعدة في المغرب الإسلامي) وبعض الجماعات المتحالفة مع القاعدة، علاوة على حزب الله، أساليب مماثلة.

قارن هذا بأسلوبنا: إننا نصمم عادة العمليات الفعلية أولا، ثم نصوغ العمليات الإعلامية الداعمة لتوضيح ما قمنا به. وهذا هو عكس أسلوب تنظيم القاعدة. ورغم كل احترافيتنا، فإن إعلامنا، مقارنة بإعلام العدو، هو مجرد لاحقة تخطر ببالنا بعد الحدث. وبعبارة تستخدم المصطلحات العسكرية، فإن "الجهد الرئيسي" بالنسبة للقاعدة هو الإعلام. أما بالنسبة لنا فإن الإعلام "جهد مساند". وكما أشير من قبل، هناك ١,٦٨ مليون شخص في القوات المسلحة الأميركية، وما يفعلونه يتحدث بصوت أعلى مما يقوله محترفو الإعلام (الذين يعدّون بالمئات). وبالتالي فإننا نحتاج، إن أردنا محاربة دعاية المتطرفين، إلى قدرة لشن حرب إعلامية إستراتيجية – وظيفة موحّدة تجمع بين جميع

عناصر ما نقوله ونفعله لإرسال رسائل إستراتيجية تدعم سياستنا الكلية.

ولدى المؤسسة العسكرية الأميركية حالياً مبادئ أساسية توجه عمليات إعلامية متطورة، إلا أن الوكالات الأخرى لا تملك ذلك، وهي محقة في الكثير من الأحيان في التزام الحذر إزاء الأساليب العسكرية. وإضفاء صبغة عسكرية على العمليات الإعلامية سيكون غلطة فادحة من شأنها أن تخلط بين الجزء (العمليات العسكرية) والكل (الإستراتيجية القومية الأميركية) وبالتالي تقوض سياستنا الكلية. ويحدّ الافتقار إلى مبادئ أساسية توجه نشاطات الحكومة ككل في هذا المجال وإلى القدرة على مقاومة حرب إعلامية إستراتيجية من فعاليتنا ويخلق تنافرا في الرسالة الموجهة، حيث ترسل عناصر مختلفة في الحكومة الأميركية رسائل مختلفة أو تعمل حسب أجندة إعلامية مختلفة.

إننا بحاجة إلى مجهود مشترك بين الوكالات، توجهه قيادة من أعلى القمة في السلطتين التنفيذية والتشريعية في الحكومة، لخلق قدرات ومنظمات ومبادئ أساسية موجهة لحملة إعلامية إستراتيجية على المستوى القومي. ولعل تطوير مثل هذه القدرة هو أهم التحديات الكثيرة التي تواجهها قدراتنا في هذا العصر الجديد من الصراعات المدفوعة إعلاميا.

استنتاجات غير نهائية

هذه الأفكار – معجم جديد وإستراتيجية كلية وقدرة متوازنة وخدمات إستراتيجية وحرب إعلامية إستراتيجية – هي مجرد أفكار تأملية تشير إلى ما قد ينبثق عن مجهود شامل لإيجاد نماذج جديدة تحتذى لهذا العصر الجديد من الصراع. وقد تنبثق أفكار مختلفة عن مثل هذا المجهود، وفي أي حال، فإن التغيرات السريعة في البيئة بسبب تكيف العدو ستتطلب ابتكارا متواصلا. إلا أن الواضح بمثل وضوح الشمس هو أنه لم يعد بإمكان نماذجنا التقليدية للحرب الصناعية بين الدول، والدبلوماسية المستندة إلى النخب، والاستخبارات المركزة على الدول، تفسير البيئة أو توفير المفاتيح المفاهيمية للتغلب على تهديدات هذه الأيام.

وهناك تشابه جزئي بين الحرب الباردة وصراعات هذه الأيام: هناك اختلافات كثيرة بين تهديدات اليوم وتهديدات حقبة الحرب الباردة. ومع ذلك، فمن حيث بعد واحد على الأقل، هو الفترة الزمنية، قد تعني الاتجاهات الدائمة التي تدفع المجابهة الراهنة أن الصراع سيكون مشابهاً بالفعل للحرب الباردة، التي دامت بشكل أو بآخر على امتداد الـ ٧٥ عاما بين الثورة الروسية في العام ١٩١٧ وانهيار الاتحاد السوفييتي في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١. وكثير من عواقبها – خاصة "النزاعات الموروثة" الناجمة عن الحرب السوفييتية – الأفغانية – ما زال موجوداً اليوم. ونحن الآن، حتى إذا دامت هذه المجابهة نصف مدة الحرب الباردة، في بداية طريق طويل جدا بالفعل، سواء شئنا الاعتراف بذلك أم أبينا.

وربما كانت التهديدات الجديدة ، التي تبطل الحكمة المتوارثة حول عدد كبير من القضايا، تشير إلى أننا على حافة عصر جديد من الصراعات. وربما اتضح أن التوصل إلى أفكار جديدة اختراقية لفهم وهزيمة هذه التهديدات هو أهم التحديات التي نواجهها.

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تعكس بالضرورة آراء أو سياسات الحكومة الأميركية.

تقويم إستراتيجي للتقدم المحرز ضد التهديد الإرهابي

يقتضي القانون الأميركي من وزير/وزيرة الخارجية أن يقدّم للكونغرس سنويا تقريرا كاملا ووافيا عن الإرهاب. والمقال التالي مأخوذ من تقارير وزارة الخارجية حول أنماط الإرهاب في الدول المختلفة للعام ٢٠٠٦، الذي صدر في شهر نيسان/إبريل، ٢٠٠٧.

ما زالت معركة المجتمع الدولي مع الإرهابيين الذين ينشطون عبر حدود الدول مستمرة بعد مضي خمس سنوات على هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وقد أسفرت الجهود الدولية التعاونية عن تحسينات أمنية حقيقية – خاصة في تأمين الحدود والمواصلات، وتعزيز أمن الوثائق، وتعطيل التمويل الإرهابي، وتقييد حركة الإرهابيين. كما حقق المجتمع الدولي نجاحا مهماً في تفكيك المنظمات الإرهابية وتعطيل قيادتها. وأسهم ذلك في تقليص قدرات الإرهابيين على القيام بعمليات واعتقال أو قتل العديد من كبار قادة الإرهابيين.

وتمكنّا بالعمل مع الحلفاء والشركاء عبر العالم، عن طريق التنسيق وتبادل المعلومات، من إيجاد بيئة أقل إتاحة لعمل الإرهابيين ومن إبقاء زعمائهم في حالة تنقل أو اختباء ومن الحط من قدرتهم على تخطيط وشن الهجمات. ولعبت كندا وأستراليا والمملكة المتحدة والمملكة العربية السعودية وتركيا وباكستان وأفغانستان وشركاء آخرون كثيرون أدوارا رئيسية في هذا النجاح، إذ أدركوا أن الإرهاب الدولي يمثل تهديدا للمجتمع الدولي بأسره.

وتعمل وزارة الخارجية الأميركية، من خلال المبادرة الإستراتيجية الإقليمية، مع السفراء وممثلي الوكالات المختلفة في مسارح العمليات الإرهابية الرئيسية لتقويم التهديد ووضع إستراتيجيات تعاونية، وخطط عمل، وتوصيات بشأن السياسات. وحققنا تقدما في تنظيم ردود إقليمية على الإرهابيين الذين يعملون في مناطق غير محكومة أو عبر الحدود القومية. وأسفرت هذه المبادرة عن تنسيق أفضل ضمن الحكومة بين وكالات الحكومة الأميركية، وعن تعاون أكبر مع الشركاء الإقليميين وبينهم، وحسنت التخطيط ووضع الأولويات الإستراتيجية، مما أتاح لنا استخدام جميع الأدوات المتوفرة للحكومات لوضع تدابير طويلة الأمد لتهميش الإرهابيين.

التحديات المستمرة

ولكن تبقى هناك تحديات رئيسية رغم التقدم الذي لا يمكن إنكاره. فما زالت هناك عدة دول تواصل رعاية الإرهاب. ولا تزال إيران أهم دولة راعية للإرهاب وما زالت تواصل تهديد جيرانها وزعزعة استقرار العراق بتوفير الأسلحة والتدريب والمشورة والتمويل لميليشيات شيعية عراقية مختارة. وقد حاولت سوريا، مباشرة وبالتنسيق مع حزب الله تقويض الحكومة المنتخبة في لبنان وتحقيق تراجع في التقدم الذي تم إحرازه نحو الديمقراطية في الشرق الأوسط. كما تدعم سوريا بعض البعثيين والمتطرفين العراقيين، واستمرت في السماح للمقاتلين والإرهابيين الأجانب بالدخول عبر حدودها إلى العراق.

وقد أسفر التدخل الدولي في العراق عن فوائد يمكن قياسها. فقد أزال نظام حكم دكتاتوريا ظالما له سجل في رعاية ودعم الإرهاب الإقليمي، كما أتاح ظهور عملية سياسية ديمقراطية جديدة. إلا أنه استُخدم أيضا من قبل الإرهابيين كشعار للتحويل إلى التطرف والقيام بالنشاطات المتطرفة، مما أسهم في زعزعة الاستقرار في الدول المجاورة.

وما زالت أفغانستان مهددة من قبل متمردي طالبان والمتطرفين الدينيين، الذين يرتبط بعضهم بالقاعدة وبراعين خارج البلد. وفي أفغانستان، ما زال مستوى التأييد الشعبي للحكومة مرتفعا، كما تزداد المؤسسات القومية قوة، ويعتقد غالبية الأفغان أنهم أفضل حالا الآن مما كانوا عليه تحت حكم طالبان. إلا أنه يتعين على المجتمع الدولي، لكي يهزم تهديد المتمردين، أن يسلم المساعدات الموعودة وأن يعمل مع الأفغان لتعزيز قدراتهم في مجال مكافحة التمرد، وأن يضمن الحوكمة الشرعية الفعالة، وأن يتصدى لازدياد زراعة المخدرات.

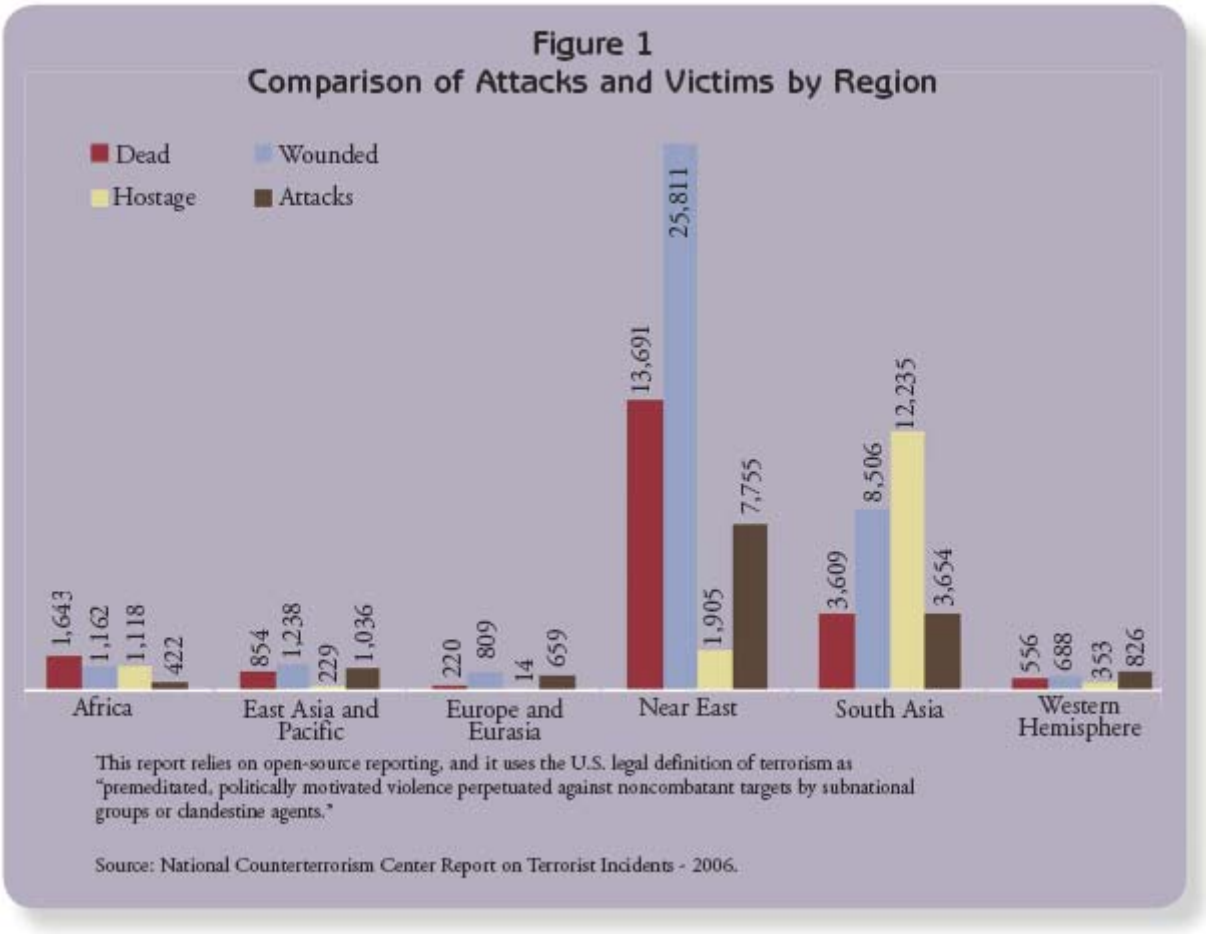

يظل النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني مصدرا للتحريض على الأعمال الإرهابية. وكان إجراء انتخابات حرة في الأراضي الفلسطينية مؤشراً ساراً على التوجه نحو إحلال الديمقراطية، إلا أن رفض حماس عقب ذلك التبرؤ من الإرهاب أو قبول حق إسرائيل المقرّ دوليا بالوجود قوض تأثير الانتخابات. ويظل النشاط الإرهابي الصادر من الأراضي الفلسطينية عاملا أساسيا في زعزعة الاستقرار ومبعثاً للقلق.

وكانت حرب الصيف بين لبنان وإسرائيل مثالا ممتازاً على الكيفية التي يمكن بها لجهود حزب الله المتواصلة لاستغلال المظالم المستمرة على الحدود الإسرائيلية – اللبنانية أن تتصاعد بسرعة إلى حرب مفتوحة. وقد أرغم النزاع المجتمع الدولي مرة أخرى على المطالبة بتجريد حزب الله تماماً من السلاح، في قرار مجلس الأمن الدولي ١٧٠١، وأسفر عن التزام دولي مجدد بدعم الديمقراطية المسالمة والمستقرة والمتعددة الطوائف في لبنان. ولكن مع ذلك، يواصل حزب الله، المصنف كمنظمة إرهابية أجنبية، بالتعاون مع إيران وسوريا الراعيتين للإرهاب، تقويض الحكومة المنتخبة في لبنان وما زال تهديدا خطيرا للأمن في الشرق الأوسط.

وقد تكيفت القاعدة والمنظمات المنتسبة إليها مع نجاحنا في تعطيل قدرتها على القيام بالعمليات بتركيز مزيد من الاهتمام والموارد على جهودها الدعائية والإعلامية المضللة. وهم يستغلون ويفسرون أعمال العديد من اللاعبين المحليين شبه المستقلين، مستخدمينها لتعبئة المؤيدين والأنصار، وترهيب المعارضين، والتأثير على الرأي العام العالمي. ويعتبر الإرهابيون العمليات الإعلامية جزءا أساسيا من جهودهم. ولكن المجتمع الدولي لم يحشد حتى الآن ردا منسقا ومدعوما بالموارد بصورة فعالة على دعاية المتطرفين.

بشكل عام، تظل القاعدة والتحالف الفضفاض للحركات المنتسبة إليها أكثر التهديدات آنية للأمن القومي الأميركي وتحدّيا أمنيا لا يستهان به للمجتمع الدولي.

اتجاهات أساسية للقاعدة

يمكن للأحداث الإرهابية الفردية، كتفجير مسجد العسكرية في سامراء بالعراق في ٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠٦ الذي أثار عنفا طائفيا واسع النطاق وغير

طبيعة الحرب في العراق، أن تكون شرارة تشعل نزاعاً أوسع أو نماذج تحاكيها هجمات مماثلة. ولما كان الإرهاب سياسيا أساسا، فإن الأهمية السياسية للأحداث الرئيسية أساسية بالنسبة لتحديد ردود ذات معنى. لذا، فإن الاتجاهات المقدمة في هذا الجزء تفسيرية – تقدم نظرة نوعية متبصرة توضح كنه التفاصيل الإحصائية.

حرب الدعاية الإرهابية

كما ذكر في تقارير الدول للعام ٢٠٠٥، دفع نجاح المجتمع الدولي في تعطيل قيادة الإرهابيين وقدرتهم على القيام بالعمليات القاعدة إلى تركيز جهود أكبر على الإعلام المضلل والدعاية المعادية للغرب. وتسارع هذا الاتجاه خلال هذا العام، مع استغلال القاعدة، لمآربها الشخصية، مظالم الجماعات المحلية ومحاولة تصوير نفسها على أنها طليعة حركة عالمية. وما زالت القاعدة تملك بعض القدرة على تنفيذ العمليات وما زالت مصممة على شن هجمات مثيرة واسعة النطاق، بما في ذلك ضد الولايات المتحدة وغيرها من الأهداف الغربية البارزة. إلا أن النهج الحالي الذي تعتمده القاعدة يركز، بشكل عام، على حرب الدعاية – استخدام مزيج من الهجمات الإرهابية والتمرد والإذاعات والتلفزيون والدعاية عبر الإنترنت وأعمال التخريب، لتقويض ثقة ووحدة الشعوب الغربية وتوليد تصور كاذب بوجود حركة قوية منتشرة في شتى أنحاء العالم.

"الحزام الدوار الناقل" الإرهابي

استمر تحول السكان المهاجرين والشباب والأقليات المنسلخة عن المجتمع في أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا إلى التطرف. إلا أنه أصبح واضحا بصورة متزايدة أن مثل هذا التحول إلى التطرف لا يحدث بالصدفة، أو لكون مثل هؤلاء السكان ميالين بالفطرة إلى التطرف، بل إن هناك أدلة متزايدة على وجود إرهابيين ومتطرفين يستخدمون مظالم الشباب المنسلخين عن المجتمع أو السكان المهاجرين ثم يستغلون تلك المظالم للإطاحة بالسلطات الشرعية وخلق اضطرابات.

ويسعى الإرهابيون إلى استخدام المظالم لجر الآخرين إلى التطرف من خلال استقطابهم للمشاركة أكثر وأكثر في النشاطات غير القانونية. ويمكن تصوير ذلك على أفضل وجه على شكل "حزام دوار ناقل" يسعى الإرهابيون من خلاله إلى تحويل السكان المنسلخين عن المجتمع أو أصحاب المظالم إلى تبني وجهات نظر متطرفة، ثم تحويلهم، على مراحل، إلى مناصرين فمؤيدين، وفي النهاية، إلى أعضاء في شبكات إرهابية. ويتضمن ذلك في بعض المناطق جهودا تبذلها القاعدة وغيرها من الإرهابيين لاستغلال التمرد والنزاعات بين فئات السكان المختلفة كأدوات لتحويل الأفراد إلى متطرفين وتجنيدهم، خاصة من خلال استخدام الإنترنت لنقل رسالتهم. ويتطلب التصدي لمثل هذه الجهود أن نعامل السكان المهاجرين والشباب ليس على أنهم مصدر تهديد علينا أن ندافع (عن أنفسنا) ضده، وإنما على أنهم هدف لعمليات التخريب التي يقوم بها العدو، علينا حمايته ودعمه. كما يستلزم تحمل زعماء الجاليات المحلية مسؤولية أعمال أبناء جالياتهم واتخاذ إجراءات للتصدي لنشاطات المتطرفين التخريبية.

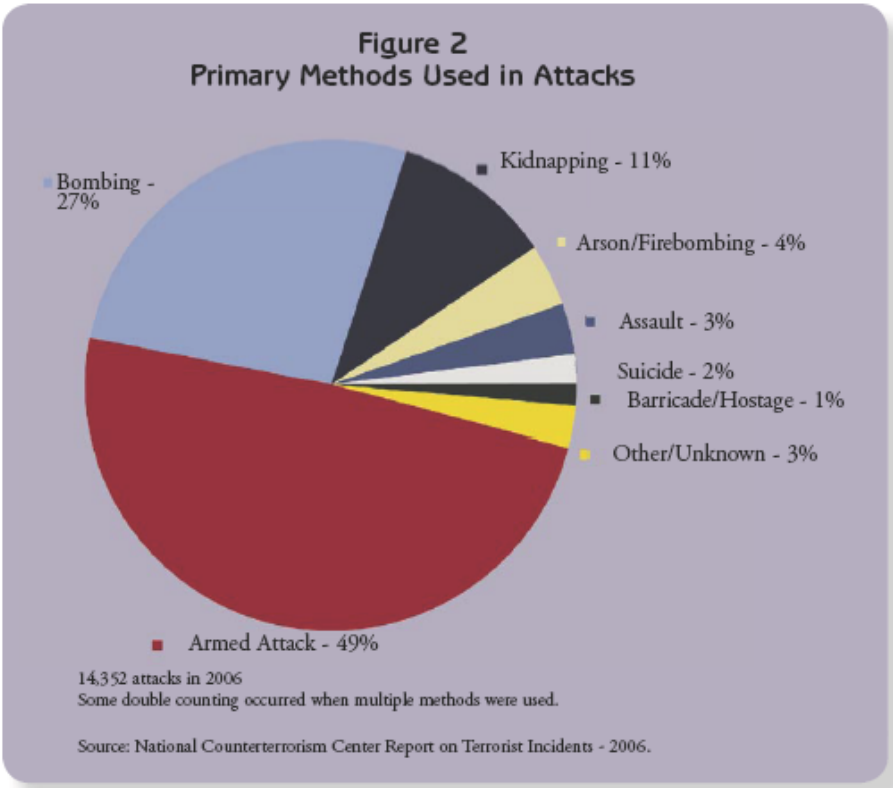

عدو من نوع جديد

تبرز الأحداث السطحية المذكورة أعلاه اتجاها أعمق: تحول الإرهاب الدولي من الأشكال التقليدية التي رمى الكونغرس إلى معالجتها لدى فرضه وضع التقارير السنوية عن وضع الإرهاب في الدول المختلفة إلى أسلوب أوسع ومتعدد الأنواع من الحرب التي تقوم بها جماعات ليست دولاً عبر حدود الدول والتي تشبه اليوم نوعاً من التمرد العالمي. وقد دخلنا مرحلة جديدة من الصراعات قد تتطلب نماذج جديدة لاحتذائها وردودا مختلفة عن الردود في الحقب السابقة.

تمثل القاعدة ومجموعة قيادتها الأساسية شبكة عمل عالمية تسعى إلى تجميع واستغلال تأثير لاعبين مبعثرين على نطاق واسع وشبه مستقلين. وهي تصف نفسها علناً على أنها حركة رجال عصابات متخطية لحدود الدول وتطبق إستراتيجيات تمرد كلاسيكية على المستوى العالمي. وتستخدم القاعدة الإرهاب، ولكنها تستخدم أيضاً التخريب والدعاية والحرب المفتوحة، وتسعى للحصول على أسلحة الدمار الشامل لكي تلحق بأعدائها الحد الأقصى من الأضرار. وهي تربط بين أفراد، وتستغل، مجتمعاً أوسع وأكثر غموضا من لاعبين إقليميين وقوميين ومحليين يشاركونها بعض أهدافها، ولكنهم يتابعون أيضا أجنداتهم المحلية الخاصة بهم. وأخيرا، إنها تعمل عن طريق ملاذات آمنة إقليمية وعبر حدود الدول تسهل أعمالها فيما تعرقل ردود الحكومات.

تفتيت التهديد

يمكن للقاعدة أن تبدأ، إلى الحد الذي تنجح فيه في تجميع هذه المجموعة الأوسع من اللاعبين المتطرفين، في شن هجمات إرهابية بوتيرة أكثر تكرارا وعلى نطاق جغرافي أوسع. ولذا، يتعين علينا أن نعمل على تفتيت التهديد، عن طريق التعاون الدولي والدعاية المضادة ومحاربة التخريب والتمرد وأساليب مكافحة الإرهاب التقليدية.

ويحطم التفتيت ترابط حلقات السلسلة التي تستغل مظالم الأشخاص العاديين وتستخدمهم وتحولهم إلى إرهابيين. وهو يرمي إلى تزويد الأشخاص الذين تم تحويلهم إلى متطرفين بالفعل بطريقة للخروج وإلى استحداث سبل لتحقيق الجماعات المنسلخة عن مجتمعاتها لإنصاف مظالمها المشروعة دون الانضمام إلى شبكة إرهابية. ويحرم التفتيت القاعدة من هدفها الأساسي بإحراز الزعامة على الحركات المتطرفة في جميع أنحاء العالم وتوحيدها ضمن حركة واحدة. ومع أنه لا يلغي التهديد، إلا أنه يساعد في تقليصه إلى أجزاء محلية أقل خطورة يمكن لحكومات فردية متعاونة مع الجاليات معالجة أمرها.

الإرهاب في العام ٢٠٠٦

من ملحق المركز الأميركي القومي لمكافحة الإرهاب القومي الأميركي المرفق بتقارير أنماط الإرهاب في الدول المختلفة للعام ٢٠٠٦
(الأرقام تقريبية)

١٤,٣٥٢	عدد الهجمات الإرهابية في جميع أنحاء العالم
٧٤,٥٤٥	عدد القتلى والجرحى والمختطفين من غير المقاتلين
٢٠,٥٧٠	عدد القتلى من المدنيين
١,٨٠٠	عدد القتلى والجرحى بين الأطفال
٤٣٠	القتلى والجرحى بين الطلاب
٢١٥	القتلى والجرحى بين المعلمين
١٢٩	القتلى والجرحى بين الصحفيين
٨,٢٠٠	القتلى والجرحى بين رجال الشرطة
١,٣٠٠	القتلى والجرحى بين الزعماء الحكوميين والعمال والحراس الشخصيين
١٥,٨٥٥	عدد الأشخاص المخطوفين
أكثر من ٥٠	النسبة المئوية للضحايا المسلمين
٩,٠٠٠	الهجمات الإرهابية التي ارتكبها مجهولون
٣٠٠	الجماعات التي حددت كمجموعات مرتبطة بالهجمات الباقية
١٩,٥٠٠	المدارس والمصالح التجارية والمباني الأخرى والسيارات والعربات المهاجمة
٣٥٠	المساجد التي استُهدفت أو هوجمت.

الشبكات الموثوق بها

يتطلب مثل هذا التعاون إقامة شبكات موثوق بها لإزاحة وتهميش شبكات المتطرفين والحلول محلها. ومع أن قتل وأسر اللاعبين الإرهابيين الرئيسيين أساسي في محاربة الإرهاب، إلا أنه قد يكون لذلك آثار ضارة. فهذه الإجراءات لا تقضي على التهديد تماما وقد تؤدي إلى نتائج عكسية إذا ما أسيء استخدامها. وينبغي علينا بدلا من ذلك أن نسعى إلى إقامة وتعزيز شبكات موثوق بها من الحكومات والمواطنين العاديين والمنظمات الخاصة والمؤسسات متعددة الأطراف ومنظمات الأعمال، التي تعمل معاً بشكل تعاوني لهزيمة تهديد التطرف العنيف.

وتساعد مثل هذه الشبكات، مع مرور الوقت، على اجتذاب السكان المعرضين لخطر استغلالهم للقيام بالأعمال التخريبية من قبل الإرهابيين بعيداً عنهم وعلى خلق آليات لمعالجة احتياجات ومظالم الناس، مما يهمّش الإرهابيين. ويمكن لمنظمات الشباب والشبكات التعليمية والشراكات في القطاع

التجاري والصناعي وتمكين المرأة ومنحها القدرات ومبادرات التنمية المحلية أن تلعب جميعاً دورا، في حين تكون الحكومة شريكا داعما.

الزعماء والملاذات الآمنة والأوضاع الأساسية

إن عناصر التهديد الإرهابي الاستراتيجية الثلاثة التي يتعين تحييدها، لجعل مثل هذه التدابير النشطة فعالة، هي الزعماء والملاذات الآمنة والأوضاع الأساسية التي يستغلها الإرهاب ويرتكز إليها. يقوم الزعماء بوظيفة تحفيزية وتعبوية وتنظيمية ويعملون كرؤساء صوريين رمزيين. وتوفر الملاذات الآمنة، التي تقع عادة في مناطق غير محكومة أو ليست محكومة بالقدر الكافي بيئة آمنة للتدريب والتخطيط والتمويل والدعم العملياتي وقاعدة لشن الهجمات. وقد تكون ملاذاً فعلياً أو افتراضياً (على الشبكة العنكبوتية) في طبيعته. يضاف إلى ذلك أن الأوضاع الأساسية توفر الوقود، على شكل مظالم ونزاعات، الذي يغذي عملية التحويل إلى التطرف.

ويشير التعامل مع هذا العصر الجديد من الصراعات كنوع من التمرد العالمي ضمنا إلى أن أساليب مكافحة التمرد أساسية في محاربة النوع الجديد من الإرهاب العابر لحدود الدول. وتشتمل هذه الأساليب على، أولا، تركيز على حماية وتأمين السكان، وثانيا، تهميش المتمردين سياسيا ومادياً، وكسب دعم وتعاون السكان المعرضين للخطر عن طريق اتخاذ تدابير سياسية وتنموية محددة الأهداف ومركزة عليها، والقيام بعمليات خاصة على أساس معلومات استخباراتية للقضاء على عناصر عدوة بالغة الأهمية بحد أدنى من الأذى الإضافي.

دمج جميع عناصر القوة القومية

يتعين دمج جميع عناصر القوة القومية، بما فيها الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية والاستخباراتية، واستخدامها بشكل منسق من قبل الحكومة ككل. والأبعاد الفكرية والنفسية للتهديد هي، على الأقل، بنفس أهمية البعد المادي، ولذا يجب أن تكون إجراءات المكافحة منسقة ومزودة بالموارد بشكل كاف. وبالتالي، فإن العنصر العسكري في القوة القومية لا يلعب إلا دورا مساندا في هذا الجهد؛ أما التركيز الرئيسي فهو على التأثير غير العسكري.

وبما أن العدو لاعب أو طرف ليس دولة يزدهر بين السكان الناقمين، فإن جهود القطاع الخاص تتسم بنفس أهمية النشاطات الحكومية على الأقل. ودبلوماسية المواطنين والنشاطات الثقافية والاتصالات الشخصية والتعاون الاقتصادي والتنمية واستخدام الموارد الإعلامية والأكاديمية كلها عناصر أساسية في ردنا على التهديد. ويعد تحفيز وتعبئة ودعم مثل هذه النشاطات التي يقودها القطاع الخاص مهمات قيادية أساسية في البيئة الجديدة.

الالتزام – مفتاح النجاح

أظهرت التجربة منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أن عامل النجاح الأساسي في مجابهة التطرف المستخدم للعنف هو التزام الحكومات بالعمل مع بعضها بعضاً، ومع المجتمع الدولي، ومع منظمات القطاع الخاص، ومع مواطنيها والسكان المهاجرين.

وقد تم تقليص خطر الإرهاب إلى حد كبير حيث تتعاون الحكومات، وتنشئ الشبكات الموثوق بها، وتسعى للحصول على دعم مطلع نشط من مواطنيها، وتؤمن حوكمة شرعية فعالة تستجيب لمواطنيها، وتتعاطى عن كثب مع المجتمع الدولي.

أما حيث افتقرت الحكومات إلى الالتزام بالعمل مع جيرانها والحصول على تأييد شعبها، فقد ظل الإرهاب وعدم الاستقرار والنزاعات التي يستغلها الإرهابيون مصادر تهديد رئيسية.

Bibliography

Additional readings on terrorism

Bin Hassan, Muhammad Haniff. "Key Considerations in Counterideological Work Against Terrorist Ideology." *Studies in Conflict & Terrorism*, vol. 29, no. 6 (September 2006): pp. 561-588.

Bloom, Mia. *Dying to Kill: The Allure of Suicide Terror*. New York: Columbia University Press, 2005.

Borum, Randy. *Psychology of Terrorism*. Tampa, FL: University of South Florida, 2004.

Fouda, Yosri, and Nick Fielding. *Masterminds of Terror: The Truth Behind the Most Devastating Attack the World Has Ever Seen*. Edinburgh, Scotland: Mainstream Publishing, 2003.

Hafez, Mohammed. *Manufacturing Human Bombs: The Making of Palestinian Suicide Bombers*. Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace, 2006.

Haqqani, Husain, and Daniel Kimmage. "The Online Bios of Iraq's Suicidology." *The New Republic* (22 September 2005): p. 14.

Hoffman, Bruce. *Inside Terrorism*. New York: Columbia University Press, 2006.

Horgan, John. *The Psychology of Terrorism*. London: Routledge, 2005.

Hronick, Michael S. "Analyzing Terror: Researchers Study the Perpetrators and the Effects of Suicide Terrrorism." *NIJ Journal*, no. 254 (July 2006): pp. 8-11.

Hudson, Rex A. *The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?* Washington, D.C.: Federal Research Division, Library of Congress, 1999.

Kilcullen, David. "Countering Global Insurgency." October 2004. (The long Internet version of a paper subsequently published in the *Journal of Strategic Studies.)*

Laqueur, Walter Z. *No End to War: Terrorism in the Twenty-first Century*. New York: Continuum Books, 2003.

Lelyveld, Joseph. "All Suicide Bombers Are Not Alike." *The New York Times Magazine* (28 October 2001): pp. 48-79.

Martin, Gus. *Understanding Terrorism: Challenges, Perspectives, and Issues*. Thousand Oaks, CA: Sage Publications, Inc., 2006.

Miller, Laurence. "Terrorist Mind: I. A Psychological and Political Analysis." *International Journal of Offender Therapy and Comparative Criminology*, vol. 50, no. 2 (April 2006): pp. 121-138.

Miller, Laurence. "Terrorist Mind: II. Typologies, Psychopathologies, and Practical Guidelines for Investigation." *International Journal of Offender Therapy and Comparative Criminology*, vol. 50, no. 3 (June 2006): pp. 255-268.

Perl, Raphael. "Trends in Terrorism." Washington, D.C.: Congressional Research Service, 2006.

Post, Jerrold M. *Leaders and Their Followers in a Dangerous World: The Psychology of Political Behavior.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 2004.

Post, Jerrold M. "When Hatred Is Bred in the Bone: Psycho-cultural Foundations of Contemporary Terrorism." *Political Psychology*, vol. 26, no. 4 (August 2005): pp. 615-636.

Sageman, Marc, *Understanding Terror Networks.* Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2004.

Stern, Jessica. *Terror in the Name of God: Why Religious Militants Kill.* New York: HarperCollins, 2003.

Weimann, Gabriel. *Terror on the Internet: The New Arena, The New Challenges*. Washington, D.C.: United States Institute of Peace, 2006.

The U.S. Department of State assumes no responsibility for the content and availability of the resources from other agencies and organizations listed above. All Internet links were active as of May 2007.

Internet Resources

Online resources for terrorism information

U.S. GOVERNMENT

U.S. Air National Guard: Conflict 21's Center for Psychology of Terrorism Studies
http://c21.maxwell.af.mil/cts-ref.htm
The center identifies innovative ideas for research, leveraging of resources, and institutional changes needed to meet the challenges of homeland security and to combat terrorism.

U.S. Congress. Hearing on the Terrorist/Jihadist Use of the Internet for Strategic Communications
http://intelligence.house.gov/Reports.aspx?Section=134
This hearing demonstrates how jihadists effectively use the Internet to communicate with disaffected or young moderate Muslims.

U.S. Department of State: Counterterrorism Office (S/CT)
http://www.state.gov/s/ct/
This office leads a worldwide effort to combat terrorism using all the instruments of statecraft: diplomacy, economic power, intelligence, law enforcement, and military. S/CT provides foreign policy oversight and direction to all U.S. government international counterterrorism activities and is guided by the National Security Strategy and the National Strategy for Combating Terrorism.

Country Reports on Terrorism 2006
A major annual report from the U.S. Department of State Counterterrorism Office.
http://www.state.gov/s/ct/rls/crt/2006/

U.S. Department of State: International Information Programs: International Security: Response to Terrorism
http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/
This site links to news, electronic journals, photos, video segments, documents, fact sheets, and other electronic resources.

U.S. National Defense University: Military Policy Awareness Links—Terrorism: Terrorist Group Profiles
http://merln.ndu.edu/index.cfm?secID=149&pageID=3&type=section#profiles
A group of links from the National Defense University that includes government and think-tank reports on terrorist leaders, ideology, and motivations.

U.S. ORGANIZATIONS

Center for Interdisciplinary Policy, Education, and Research on Terrorism (CIPERT)
http://www.cipert.org/
CIPERT'S mission is to promote the scientific understanding of the causes and effects of political violence, especially terrorism, and to translate this understanding into effective policy, education, and research.

Counterterrorism Blog
http://counterterrorismblog.org/
This Web log features posts from former law enforcement officials and congressional staffers, as well as links to news stories and research reports.

Public Broadcasting System: Frontline—The Roots of Terror (Teacher's Guide)
http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/teach/terror/
This seminal television program produced a series of documentaries, all of which dealt with the roots of terrorism and the complex evolution of U.S. policy and Islamic fundamentalism. *Frontline* also developed an in-depth teachers' guide for use with the programs to meet a variety of instructional needs and to help students explore these intricate issues.

Terrorism Knowledge Base
http://www.tkb.org
The Terrorism Knowledge Base, a collaboration of government, nongovernmental organizations, and think tanks, covers the history, affiliations, locations, and tactics of terrorist groups operating across the world, with more than 35 years of terrorism incident data and hundreds of group and leader profiles and trials.

ACADEMIC ORGANIZATIONS

America's War Against Terrorism: Psychological Causes of Terrorism
http://www.lib.umich.edu/govdocs/usterror.html#psychter
The University of Michigan's mega Internet documents center provides U.S. foreign policy and government information about America's war against terrorism and its aftermath.

Kennedy School of Government: Undermining Terrorism
http://www.ksg.harvard.edu/terrorism/
This portal captures key academic papers, reports, books, op-eds, and conferences on undermining terrorism.

The National Center on the Psychology of Terrorism (NCPT)
http://www.terrorismpsychology.org/Default.aspx?tabid=1
This center argues that psychology and psychological science is critical to understanding terrorism and to combating its consequences. It will join forces with CIPERT in the future.

National Consortium for the Study of Terrorism and Responses to Terrorism (START)
http://www.start.umd.edu
Based at the University of Maryland, START is tasked by the Department of Homeland Security's Science and Technology Directorate with using data from the social and behavioral sciences to improve understanding of the origins, dynamics, and social and psychological impacts of terrorism.

INTERNATIONAL ORGANIZATIONS

Center for Defense Information (CDI): Terrorism Project
http://www.cdi.org/program/issue/index.cfm?ProgramID=39&issueid=138
CDI's Terrorism Project is designed to provide insights, in-depth analysis, and facts on the military, security, and foreign policy challenges of terrorism.

Institute for Counter-Terrorism
http://www.ict.org.il/
This think tank provides detailed profiles of terrorist organizations and brief reports on terrorist-related activities.

International Center for the Study of Terrorism
http://www.wun.ac.uk/ctcenter/
The center is built around a core of universities that use theories, methods, findings, and perspectives from a wide range of disciplines, including psychology and sociology, and apply them to studying terrorism and to developing effective means of responding to the threat of terrorism.

Middle East Media Research Institute: Islamist Websites Monitor Project
http://memri.org/iwmp.html
The Islamist Websites Monitor, which focuses on the major jihadi Web sites, will be regularly releasing translated news, analysis, and videos from these sites

---

The U.S. Department of State assumes no responsibility for the content and availability of the resources from other agencies and organizations listed above. All Internet links were active as of May 2007.

A MONTHLY JOURNAL ABOUT THE UNITED STATES OFFERED IN MULTIPLE LANGUAGES

Five Thematic Editions:

Economic Perspectives
Foreign Policy Agenda
Global Issues
Issues of Democracy
Society & Values

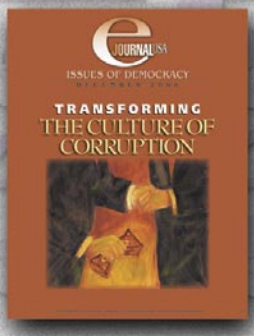

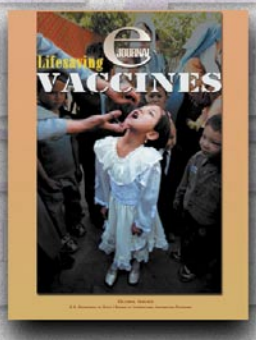

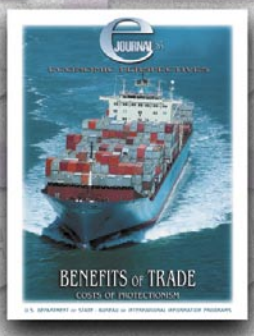

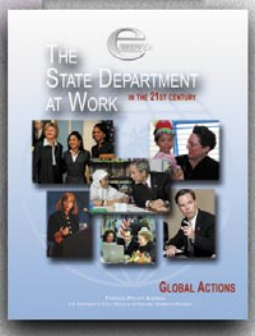

REVIEW THE FULL LISTING OF TITLES AT
http://usinfo.state.gov/pub/ejournalusa.html